كسوف شمس

د / جمال محمود دغيدى

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : كسوف شمس
المؤلف : د/ جمال محمود دغيدى
تصنيف الكتاب : رواية
تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس 14 × 20
رقم الإيداع : 23360 / 2017
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 534 - 3

العنوان : المكتبة والمطبعة : 3 ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : 01157760052 - 01229300029

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى الفلاح

الطمي الذي يمنحنا الخصوبة والبقاء وتطأه أقدام الظلم

جمال محمود دغيدى

-1-

تتنقل الفراشة الرقيقة من زهرة إلى أخرى، تحط على زهرة من زهور النجيل البيضاء، فتحتضنها بحنو، ثم لا تلبث أن تتركها لتحط على أخرى. تعذر على الدكتور عبد الحميد إدراك وجودها فوق الزهرة لاختلاط لونيهما الأبيضين. اعتدل قاعدا وجذب المسند المحشو بقش الأرز ناحيته بعد أن تزحزح فوق الحصيرة الملساء:

— سبحان الله!

قالها وهو يتابع فراشة أبو دقيق، ثم التفت إلى صديقه مجدي السروي الذي يجلس بجواره حين سأل:

— علمت أن الدكتور حسن مرعى نقل إلى المستشفى المركزي، فهل هذا صحيح؟

— لا أعلم، لم يحضر إلى المستشفى حتى الآن.

وقطب ثم نظر إلى غطاء البرسيم الأخضر الممتد أمامه، قال وهو يشير بإصبعه:

– لـو أن نظريـة دارويـن صحيحـة لمـا بقيـت هـذه الفراشـة حتــى الآن!

وقال مجدي السروي:

– ألا تفكـر في المتاعـب الـتي قـد يسـببها لـك ولاسـيما أنـه سـيعمل معـك في نفـس القسـم؟

كان لازال يتابع الفراشة حين قال:

– البقـاء للأقـوى، البقـاء للأصلـح، البقـاء للأجمـل، أيهـم يصـح؟

قال له مجدي السروي بجدية:

– أنصحـك أن تَحْـذر منـه، فلـم يعـد حسـنا الـذي تعرفـه، ولم يعـد صديقـك كمـا يصـور لـك خيالـك المرهـف، بـل أصبح كائنـا مخيفـا!

التفـت الدكتـور عبـد الحميـد فجـأة إلى الحـد الفاصـل بـين حقلهـم وحقـل الحـاج محمـد مرعـى، ثـم نظر علـى امتـداد بصره إلى الترعـة الموازيـة للطريـق الزراعـي الموصـل بـين القريتـين، وقعـت عينـاه علـى شـجرة التـين الشـوكي في حضـن الترعـة، أغمـض عينيـه في شـبه حلـم. أحضـر الولـد الشـقي حسـن مرعـى عـودا أخضـر مـن عيـدان الـذرة، ثنـى العـود عنـد المنتصـف، نظـر إليـه الولـد عبـد الحميـد الوديـع بإعجـاب وسـأله:

– ماذا تفعل بهذا العود يا حسن؟!

– قف أنت هنا، واحذر الشوك!

أمسك بيديه طرفي العود، مد يديه بالعود ـ وقد أطبق نصفيه حتى تلامسا ـ إلى شجرة التين الشوكي، أفرج بين طرفي العود قليلا، ومن خلال الأوراق الغليظة الشائكة جعل ثمرة التين في زاوية العود، قرب بين يديه فضاقت الزاوية على الثمرة، سحب العود للوراء، فسقطت على الأرض الترابية ثمرة التين، قال بفخر:

– خذها يا عبد الحميد، سأحضر واحدة أخرى لي.

أمسك كل منهما ثمرة تين بحذر، واندفعا تجاه شجرة التوت، وراحا يحكان الشوك في جذع الشجرة، أخرج حسن من جيبه شريحة صغيرة من الزجاج، سلخا جلد ثمرتي التين، وتناولاهما في وقت واحد بسعادة.

– يا دكتور عبد الحميد. ماذا بك اليوم! لماذا تشرد بذهنك كثيرا؟!

هز الدكتور عبد الحميد رأسه كأنه يخلصها من شئ وقال بتردد:

– لا شيئ يا أستاذ مجدي، لاشيء.

– كنت أسألك: ألم يجمعكما مكان واحد منذ ذلك الحين؟

– أي حين تقصد؟

– ساعة انعقد المجلس في دوار العمدة!

– ألا زلت تذكره؟!

– وهل نسيته أنت؟!

– أحاول نسيانه!

التفت الدكتور عبد الحميد مرة أخرى إلى الحد الفاصل بين الحقلين، أغمض عينيه ثانية، وخيم عليه سهوم بغيض، خلاف على الحدود وقت تجريف الأرض، مشادة كلامية، سب، مشاجرة، وسقوط عصام مدرجا في دمائه على هذا الحد، سؤال وكيل النيابة لوالده:

– هل لك أعداء؟

– لا.

– هل تتهم أحدا؟

– لا.

– هل من شهود؟

– لا.

كادت تقيد ضد مجهول، وارتدى الحاج محمد مرعى طرحة نسائية سوداء، دليلا على إصراره على الثأر، لكن شهادة الشهود، واعتراف سمارة في النهاية بإيعاز من والده لئلا يدب

الثـأر بـين العائلتـين، جعـل العدالـة تأخـذ مجراهـا القانونـي، قـال الدكتـور عبـد الحميـد وكأنـه لا يوجـه حديثـه إلى أحـد:

— إذا رويت الأرض بالدماء فلن تنبت إلا الكراهية.

قال مجدي السروي:

— أحـذرك مـرة أخـرى الدكتـور حسـن يضمـر الشـر كمـا علمت مـن الناس!

قال الدكتور عبد الحميد بعصبية:

— رأى أخاه وقد شقت الفأس رأسه!

قال مجدي السروي:

— لكـن والـدك الله يرحمـه ضـرب أخـاك حتـى كاد أن يقتلـه، ولم يـدع بابـا للصلـح إلا طرقـه، ودفـع سمـارة أيضـا الثمـن غاليا.

— هـل العشـرون ألـف جنيـه الـتي قررهـا المجلـس ممكـن أن تجعـل الدكتـور حسـن ينسـى صـورة أخيـه عصـام؟

فحدجه مجدي السروي بهدوء قائلا:

— الله يرحـم والـدك، قـال النـاس سـاعتها أنـه بكـى علـى عصـام كمـا لم يبـك أب علـى ابنـه، ولمـا بلـغ هـذا الحـاج محمـد مرعـى تأثـر وبكـى كثـيرا.

واتسعت عين الدكتور عبد الحميد دهشة حين سمع مجدي يسأله:

– ألا تخشى الدكتور حسن؟

استدار الدكتور عبد الحميد إلى شجرة التوت، ركز بصره على فرع بعينه وشرد، كان الولد حسن الشقي يقف فوقها، وطفل وديع آخر يقف على الأرض منتظرا باسطا حجره للأمام وهو يقول:

– هز يا حسن!

كان الطفل الوديع يلتقط من حجره حبات التوت الحبشي البيضاء المشربة بلون بنفسجي خفيف، يمصها في تلذذ ويقول:

– هز هذا الفرع يا حسن!

يُخرج الولد الشقي حسن شيئا من تحت جلبابه، فيجرى عبد الحميد بوداعته فجأة تاركا المكان، وقد أدرك خبث صاحبه، فتتناثر ذرات البول في الهواء، تتبعها ضحكات شيطانية من فوق الشجرة.

– يا دكتور عبد الحميد مالك اليوم؟! إلى أين يأخذك تفكيرك؟! لعل كلامي هذا أخافك؟!

ثم أردف مجدي السروي:

– أعتقد أن الدكتور حسن لن يضرك لسببين، الأول لصداقتك القديمة معه، والثاني أن المجلس قد أنهى الموضوع من زمان.

نادى شاب يقف على رأس الحقل، بجوار شجرة التين الشوكي بصوته الحاد:

– ناس في العيادة يا دكتور عبد الحميد!

رد عليه مجدي السروي:

– عمك سعيد فتح الله هناك؟

– هو الذي أرسلني إلى هنا.

نهضا سويا وخرجا من الحقل صامتين.

_2_

تنـاول الدكتـور حسـن مرعـى عنقـودا مـن العنـب مـن الصينيـة، اسـتبعد الحبـات المعطوبـة بإصبعيـه، ثـم قدمهـا لهـا وهـو يبتسـم، سـألته وهـى تحدجـه بنظـرة مـن عينيهـا الغائرتـين:

— طعمها لذيذ يا حسن؟

— لذيذ جدا يا أم حسن.

— كلْهـا أنـت يـا حبيـبي، كُلْ، أبـوك اشـتراه بمـال حـلال، ثمـن أخيـك عصـام يـا حبـة عينـي.

نحَّـت الصينيـة تجاهـه وهـى تهـز رأسـها المعصـوب بطرحـة سـوداء معقـودة مـن الخلـف، فقـال لهـا الدكتور حسـن متضجرا:

— ألن تكُفِّى عن هذا الكلام؟

فقالت متهكمة:

— أنت غضبت يا حسـن يا حبيبي؟!، ينقطع لسـاني، أضحك يـا نـور عينـي كمـا شـئت، واسـتمتع بـالأكل علـى راحتـك.

أشاح بيده وقال:

— استراح أخي وأنا الذي يموت كل يوم من كلامك هذا.

فقالت له بتحدٍ:

— لن أكف عن كلامي هذا الذي لا يعجبك طول ما أنا على ظهر الأرض، لن تنسيني السنين مرارة عصام ابني.

ثم قالت وقد انكمش حسن بجوار الحائط:

— دمك رخيص يا عصام يا ابني، دمك ثمنه عنب وجوافة!

مَدَّدَ حسن ساقه اليمنى وقال بحدة:

— لابد أن تفهمي أنها كانت مشاجرة، ولم يكن الموت مقصودا، ثم إن سمارة الذي قتله مرمى في السجن من ساعتها.

— حالا سيخرج يا حبيبي!

ثم سألته باستهزاء:

— سلامة نظرك يا حبيبي! ألم تر أباك وهو يمشى منكسرا بين الناس؟! أبوك يا حسن لم يعد رجلا كما كان، أبوك أصبح...

وتنهدت، فقال لها نافخا:

– أتريدينني أن أقتل؟!

ربتت على كتفه بسخرية قائلة:

– لا يا حبة عيني، رُحْ لصاحبك وحبيبك المستشفى! افطر معه واشرب الشاي، وقدم له عنب وجوافة!

ثم قالت بحدة:

– ميرفت بنت عمك، ميرفت المرضة، يا سعادة الدكتور أرجل منك!

صعدت سحابة من الدموع غطت عينيه، هب قائما وهو يمسك جبهته بيده ضاغطا عليها بقوة.

صعد السلم بخطوات وئيدة، دفع باب الحجرة بقدمه، أغلق الباب ورمى بنفسه على السرير، استلقى على ظهره، نظر إلى سقف الحجرة، تلاطمت في ذهنه الذكريات، كم أغلقت هذه الحجرة عليه هو وعبد الحميد، وكم ربتت أمه على كتف عبد الحميد وهى تقدم له طعام العشاء، كم كانت تسأله بود عن سمارة وعن الحاج والحاجة. تبدت له صورته هو وعبد الحميد في المدرسة الابتدائية، حين وقفا أمام ابن العمدة، وهو يمسك بيده رغيف قمح محشو بالبيض، قال عبد الحميد في وداعة:

– هات لقمة!

قال ابن العمدة:

– أغمس أنا لقمة في الدقة وأعطيك لقمة قمح!

كان عبد الحميد يمسك في يده علبة كبريت مملوءة بالدقة، كل الأطفال يشتهونها، أعدتها أمه خصيصا له، بعد أن أضافت إليها فولا سودانيا مطحونا ليقلل من حدتها، وافق عبد الحميد واعترضتُ أنا، فقد بلل ابن العمدة اللقمة بريقه قبل أن يغمسها، فخطف اللقمة التي كان عبد الحميد قد أخذها منه، ساعتها ركلته برجلي وبصقت عليه، تشاجرنا ورحت أسب الأولاد الذين قالوا لعبد الحميد ساخرين:

– خليك في الدُقة على قدك، بعدين تتعود على خبز القمح والبيض!

وقالت أمي عندما عدت قاطبا إنهم أغنياء، يرعون في قتة محلولة، وأننا وأسرة عبد الحميد على قد حالنا.

نهض الدكتور حسن فجلس، ركز بصره على الحائط وأطرق، كان عصام يبدو متجهما، حاول أن يتفادى النظر إلى الصورة المعلقة على الحائط، لم يستطع، أطبق جفنيه بقوة يحتمي من المنظر الذي تراءى له، كان عصام يتهاوى ببطء وقد شطرت الفأس رأسه، سال مخه مختلطا بالدماء على الأرض، على الحد محل الخلاف، وقف حسن مشلول الأعضاء ملجوم اللسان من هول المفاجأة.

غطى الدكتور حسن وجهه بكلتا يديه، بكى وقال:

– لم يعد للحياة بعدك طعم يا عصام، ما بداخلي أكبر من كلام أمك!

ثم قال:

– عندما تزداد الضغوط والحرارة داخل الأرض ينفجر البركان حتى تستقر الأرض ولكن ماذا أفعل أنا؟ يبدو أن الانتقام فرض نفسه علىَّ.

_3_

كانت قدما الدكتور عبد الحميد تسابق إحداهما الأخرى، وأفكاره تدور في دائرة مغلقة، إلى متى يظل ابناه بعيديْن عنه؟، هل هما سعيدان هناك كما قال أخوه؟، ترى ماذا يقولان عندما يبكيان؟ ما أقسى أن ينادى الطفل أباه أو أمه ساعة يبكى فلا يجد أحدهما، قال في نفسه:

— ترى من يحملك على كتفه ويربت على ظهرك عندما تبكى حتى تنام أو تهدأ كما عودتك؟ وأنتِ يا سارة هل تقفين في ركن صامتة عندما تغضبين؟

سار بخطوات آلية على الطريق الزراعي ساهما دون أن يلتفت إلى حقلهم، أو إلى الحد الذي يفصل بين حقلهم وحقل الحاج محمد مرعى قال محدثا نفسه:

— ترى ماذا حدث؟

وتمثلت له صورة الصبي الذي جاءه في العيادة قائلا له:

— أخوك بهجات يقول لك مُر عليه الآن ضروري، حسام ابنك بعافية.

أخبرتني أمس يا بهجات بخبرين أحدهما مفرح وهو نهاية حرب إيران والعراق رسميا والآخر محزن وهو اعتقال احمد ياسين فى اسرائيل وهو شيخ قعيد، وها أنتَ اليوم تخبرني أن ابنى مريض، لم أعد أطيق سماع الأخبار. كادت قدمه أن تقع على ضفدع يقفز خارجا من الترعة لولا أن رآه بالكاد. قال: (الله يرحمك يا أم حسام!)، علا نقيق الضفادع من الجانبين، الترعة إلى اليسار، وقناة صغيرة إلى اليمين، وصوت صرار الليل ينبعث من هنا وهناك من وقت إلى آخر، الطريق خال، فكر بصوت مسموع:

— الإنسان لا يشعر بقيمة عزيز إلا بعد أن يفقده، ولَّى الاستقرار، وفقدت الأشياء بهجتها، الضحك أصبح حركات ممسوخة، الطعام لم يعد له طعم.

نباح الكلاب يخيفه كلما مر أمام أحدى الزرائب المتناثرة على طول الطريق، تبعه كلب شرس، اقترب منه نابحا، سار ووجهه للوراء اتقاء هجومه، اقشعر بدنه كله، لم يقف الكلب إلا وقد غادر الدكتور عبد الحميد درك حراسته قال:

— ملعونة السيارة! أصبحت كالصديق اللئيم، يمنع عنك ما أنت في أشد الحاجة إليه متعللا بأسباب شتى، ويعرض عليك ما أدرك أنك في غنى عنه.

انطلق من أمامه فجأة فأر ضخم عابرًا الطريق، توقف للحظة ثم عاود المسير قائلا:

- ما أهون الإنسان؟! يخيفه فأر، وتقتله بعوضة، وتنغص حياته كلمة، ويهتز لموقف!

بدا كأنه يرى حسام وسارة، تساءل:

- ترى هل تطرب زوجة أخي وتحتضن حسام أو سارة عندما يأتيان بقولة جميلة أو فعل ذكى؟ ربما يمر كل ما يقولانه أو يفعلانه دون التفات.

ثم قال:

- الله يرحمك يا أم حسام!

خيل إليه أنه يسمع صوتها آتيا من فوق النجمة التي وقع بصره عليها أمامه:

- لن أطلب منك ألا تتزوج، بل تزوج كما شئت، لكن حافظ على مشاعر حسام وسارة، مشاعر الطفل حادة يا عبد الحميد، إذا خاف كان خوفه مضاعفا، وإذا حزن كان حزنه مضاعفا! رآها شاخصة أمامه في الفضاء، وهى في أشد حالات الإعياء، وقد اغرورقت عيناها بالدموع وهى تقول:

- تذكر يا عبد الحميد أن أقسى أنواع اليتم على الطفل يتم الأم!

عبر الكوبري، أخرج منديلا من جيبه، جفف عينيه، فرك وجهه بكفيه، ابتسم محاولا محو آثار الحزن.

★★★

استقبل بهجات أخاه عبد الحميد على الباب بوجه جاد قائلا:

- أين السيارة؟!

- عند الميكانيكي.

- حسام حرارته ارتفعت من ساعة، وكنت سأمر عليك بعد وقت العيادة، لكن حدثت له تشنجات أقلقتني.

لم ينبس الدكتور عبد الحميد بكلمة، اتجه إلى حجرة بابها مفتوح، تنبعث منها همهمات نسائية، دخل دون أن يستأذن، كانت شمس تضم حسام إلى صدرها، بعد أن لفته بفوطة كبيرة، نحت زوجة أخيه الطست المملوء بالماء جانبا، تناول ابنه وضمه إلى صدره، نظر إلى شمس نظرة شكر، قالت زوجة بهجات:

- شمس الله يبارك فيها لم تتأخر عنا عندما لجأنا إليها حتى تحضر أنت.

قالت شمس:

- كانت تشنجات حرارية، وانتهت الحمد لله بعد نزول الحرارة.

وقال بهجات:

– شمس وضعته في طست الماء، وكنت خائفا وطلبت منها أن تنتظر حتى تجئ، لكنها أصرت.

فنظر إليها الدكتور عبد الحميد قائلا:

– شكرا يا شمس.

استشعرت في لحظة أن نظرته تحمل أكثر من شكر، نظرة حزينة يعوزها شئ ربما تمتلكه هي، ركزت نظراتها في عينيه وهى تتناول حسام ثانية قائلة:

– الوقت متأخر ويجب أن تفحصه قبل أن تغلق الصيدلية.

بعد الفحص تناول بهجات تذكرة العلاج وخرج مسرعا، جلس الدكتور عبد الحميد على الكنبة بجوار شمس التي احتضنت الطفل ومالت عليه بصدرها في حنان، كان ينظر إلى ابنه من وقت لآخر، في حجر شمس، فتتلقى شمس نظراته الحزينة الشاردة بنظرات حنون رقيقة، كان ثمَّ حوار صامت يدور بينهما، شعرت للحظة بأمومة حميمة، وشعر بقشعريرة تتسرب إلى كيانه، تسلل إليه دفء مباغت عندما لامست يداه جسدها البض وهو يتناول ابنه، ما أوهن الكلمات إذا كانت وسيلة للتعبير عن المشاعر، فقد تحمل نظرة ما تعجز عن حمله كتب من الكلمات.

كانت زوجة أخيه تعد طعام العشاء، عندما دخل بهجات بالأدوية، قالت شمس:

– أنا أعطيته ملء ملعقة من الباراسيتامول.

فقال:

– إذن لا داع لإعطائه خافضا للحرارة الآن.

ثم قال لها بصوت خفيض:

– من فضلك يا شمس أعطيه أنتِ المضاد الحيوي، فأعصابي ليست على ما يرام.

فقالت زوجة أخيه:

– إن شاء الله ربنا يشفيه.

ثم نظرت إلى شمس وقالت:

– ربنا يبارك فيكِ يا شمس يا بنت فاطمة، ويرزقك بابن الحلال!

دق الباب فقالت شمس:

– أخي هشام بالتأكيد، أنا أعرف طرقاته.

استأذنت وخرجت بعد أن قبلت حسام من جبهته، ونظرت إلى الدكتور عبد الحميد الذي كان يحدق فيها، ونسى أن يشكرها وهى خارجة.

-4-

نظر المدير إلى الأطباء وبسط يده مشيرًا إلى شاب متوسط القامة، أصلع، ممتلئ الكتفين والصدر، ذي عينين واسعتين ونظراتٍ جسور – وقال:

– الدكتور حسن محمد مرعى، أخصائي جراحة عامة، تسلم العمل معنا اليوم.

ثم التفت إليه قائلا:

– تمنياتنا لك بالتوفيق، ونرجو أن تسعد معنا، فنحن أسرة واحدة.

بدأ الدكتور حسن مصافحة الجالسين مبتدئا من اليمين، حدجه الدكتور عبد الحميد بنظرة طويلة، خامره شعور أن يقوم فيحتضنه ويبكى، تذكر حديث مجدي السروي، انتظر، كانت إمارات الجدية على الوجه الجديد، كان يرد على تحية الزملاء بطريقة آلية قائلا:

– نحن أسعد!

أو:

— الله يبارك في سعادتك.

قال الدكتور عبد الحميد فى نفسه متأثرا:

— أين راحت روح الدعابة والمرح والقفشات الطريفة التي كنت تتمتع بها في حديثك مع كل من تعرفه ومن لا تعرفه؟!

وتذكر الردود التي اشتهر بها، إذا ذكرت أمامه كلمة طِب قال مبادرا:

— طب من بقك!

وإذا قابل صديقا بعد غياب بادره قائلا:

— كيف حالك؟... داهية لتكون بخير!

شعر عبد الحميد بدقات قلبه تعلو عندما اقترب منه حسن، لكنه فوجئ به قد توقف عندما صافح الطبيب الذي يسبقه، ملتفتا إلى المدير متظاهرا بالانشغال في الحديث معه، ثم استدار ناحية الطبيب الذي يلي الدكتور عبد الحميد في الجلوس صافحه، لم يلتفت ليد الدكتور عبد الحميد التي انتفضت فجأة استعدادا للمصافحة، فسرت بوجهه حمرة خفيفة وشعور بحرارة تصعد إلى وجهه فأذنيه، تمنى ألا يكون أحد قد لاحظ شيئا عليه.

تركزت العيون على الدكتور حسن مرعى في فضول، وكان يجيب على الأسئلة الموجهة إليه باقتضاب قائلا:

– كنت أعمل في سيناء.

أو:

– طبعا كل الإمكانيات كانت موجودة!

انتفض الدكتور حسن واقفا عندما دخل طبيب التخدير، عانقه بقوة، وهو يضرب على ظهره بيمناه مودة، نظر الأطباء بعضهم إلى بعض في دهشة، كان لسانه قد تخلص من لكنته الرسمية، رفع المدير حاجبيه استغرابا، بينما انسحب الدكتور عبد الحميد في هدوء.

– من يصدق أن هذا هو حسن؟!

قالها الدكتور عبد الحميد لنفسه وهو يهبط السلالم خارجا من المبنى، سار ناحية الاستقبال دون داع تائها في التفكير، أهذه مقابلة تليق بصديقين جمعتهما طفولة واحدة، ومراحل دراسية لم يفترقا خلالها؟! ثم قال لنفسه بحزن:

– ما ذنبي أنا يا حسن؟! كنت أظن أن لقاءنا هذا سيفتح أمامنا صفحة جديدة من الود!

ثم تذكر كلام مجدي السروي، وتذكر أيام المدينة الجامعية، حين حمل حسن طفاية سجائر مملوءة، وحمل هو أكواب الشاي، وذهبا إلى دورة المياه، كانت أيام عصيبة

تلك التي تسبق الامتحانات، قذف حسن بأعقاب السجائر فى المبولة وبال فى سلة المهملات، نبهه عبد الحميد، ظلا يضحكان طويلا.

داهم الدكتور عبد الحميد ضيق شديد، لمحته ميرفت على قسمات وجهه فقالت بخبث:

— هل قابلت الدكتور حسن يا دكتور؟

لم يجبها، ناول أحد العمال جنيها وقال:

— هات لي شريط جليفانان من الصيدلية.

— ألف سلامة يا دكتور! مالك؟

— صداع لم يستجب للأسبرين!

وعاد العامل من الصيدلية المقابلة للمستشفى، وقال وهو يناول الدكتور عبد الحميد أقراص الصداع:

— سمعت من مدحت الممرض أن دكتور جراحة جديد استلم العمل اليوم، يقول إنه ماهر جدا.

ازدرد قرصا دون ماء، وسار تجاه قسم الجراحة فى تراخ.

_5_

انتصف الليل، وتلبدت السماء بغيوم داكنة، وراح البدر يطل كعين امرأة بدوية في حياء، من خلال فتحات متناثرة على خيمة السحاب المتراكم، يتلصص من بعيد عبر فتحة مربعة أعلى الحائط لنافذة صغيرة لم تكتمل، فبدت حواف تلك الفتحة مضاءة بلون فضي لامع، لبس الكون للحظات قصيرة ثوبه الوضيء، فانكشفت الأشياء ثم خبت من جديد، اختفى البدر ولم يخلف وراءه سوى ضباب وأسى وبرودة وذرات خفيفة من المطر.

قبع العمال في حجرتهم بجوار البوابة، وقد انتصبت بينهم قصعة كبيرة مملوءة بجمرات متقدة طوبية اللون، وأفرغ أحدهم ما يقرب من ثلث باكو الشاي في راحته اليمنى وقذفه في إبريق الشاي، ثم راح ينفض بدقة ما علق براحته في الإبريق، وقال بعد أن دس الإبريق في قلب الجمر:

— الولد مدحت أبو لسان طويل يتحدث عن الرجل والممرضة شمس بكلام فارغ، يقول إنه لا ينام الليل عندما تكون معه في النوبتجية، وهاهو الرجل بالخارج

في عـز الـبرد رغـم أنهـا ليسـت نوبتجيـة اليـوم.

وقال آخر:

- وقـال أيضـا إنـه يراهـن إن كانـت شمـس مـا زالـت بكـرا حتـى الآن!

رد عليه جابر:

- الطبيـب الـذي يملـك ضمـيرا حيـا لا يقبلـه المرضـون ولا العمـال، كمـا كنـا في أول الأمـر، لكـن الدكتـور عبـد الحميـد لأنـه رجـل محـترم قـد فـرض علينـا وعلـى غيرنـا احترامـه.

رد آخر:

- الحقيقـة يـا أبـا عصام، كما قال الولد السَّـقْط هذا، لولا عطف وخدمـات هـذا الرجـل الـتي شملنا بهـا كما لو كنا مـن أهله، مـا كنـا أحببنـاه فهـو بضمـيره الحـي يُتعِـب مـن يعمـل معه.

انبطـح باقـي العمـال علـى الحصـيرة المتآكلـة، وهـم يغالبـون الضحـك الـذي تفجـر منهـم فجـأة كالـبركان، واهتـاج جابـر عليهـم جميعـا، وسـبهم وسـبها وخـرج، فلـولا هـذه التومرجيـة اللئيمـة، الـتي تعمـل في قسـم النسـاء، مـا لصـق بـه هـذا الاسـم، فليـس وحـده ضئيـل الجسـم حتـى تشـبهه بالسـقط.

اعتـاد الأطبـاء المناوبـون مع الدكتـور عبد الحميـد، أن يكفيهم هـو تنغيـص المترددين علـى اسـتقبال المستشـفى، مـن حـالات طارئـة، سـواء أكانـت جراحيـة أو أطفـالا أو أمراضـا باطنيـة،

وأيضا كفاهم تنغيص المحولين من مركز الشرطة ـ وما أكثرهم ـ لكتابة تقارير طبية عن إصاباتهم، صعد كل أطباء المستشفى المركزي المناوبون في ذلك اليوم إلى سكنهم، وراحوا يغطون في نوم عميق، إلا هو فقد ظل يعس، متنقلا من قسم الأطفال إلى قسم الباطنة إلى قسم الجراحة إلى الاستقبال، يسأل المرضى عن شكاواهم، ويخفف عنهم بقدر استطاعته، يقول مدحت الممرض وزميلته ميرفت إنه الوجد الذي يجعله لا ينام الليل، وتقول المستشفى كلها إنه الضمير الحي.

★★★

وفي الاستقبال كان التفاؤل يملأ قلبَيْ ميرفت وخطيبها مدحت، فقد أصبح لهما سند قوى بالمستشفى، الدكتور حسن ابن عم ميرفت لزم، قالت ميرفت وقد تظاهرت بالقلق:

— الخوف أن خالك سعيد يفسد الخطة!

فقال مدحت مطمئنا:

— لا تقلقي، فأنا أعرف نقطة ضعف خالي سعيد التي ستجعله لا يغمض عينيه فقط بل سيساعدنا بنفسه.

فتظاهرت بالبكاء، وغطت عينيها وأنفها بمنديل حتى لا يفتضح افتعالها، وقالت:

— لا تتخيل يا مدحت مدى قسوة وجحود هؤلاء الناس، الدكتور عبد الحميد وأسرته كلها!

وعاودها نشيج البكاء فقالت بصوت متقطع:

– كان منظرا فظيعا! الله يرحمك يا عصام يا ابن عمى!

فأمسك بيدها بين كفيه، ثم ألصقها بصدره على موضع قلبه بعد أن قبلها، وقال لها متأثرا:

– اصبري يا حبيبتي، سوف ترين فيهم يوما أسود من قرن الخروب!

فقالت بدهاء:

– صحيح يا مدحت؟! تقدر تطفي النار التي في قلبي؟!

لم يدرك ما انطوت عليه كلمتها هذه، فهي بحق كانت تعشق عصاما ابن عمها أيما عشق، وكم بنت معه الآمال طابقا فوق طابق، لكن الملعون سمارة هدم في لحظة كل هذه الأحلام. قال لها مدحت مؤكدا:

– خطيبك وحبيبك رجل له وزنه، وسوف تتأكدين من ذلك!

_6_

المرضى يقفون خارج الحجرة، يتطلعون للداخل كلما فتح الباب، الممرضة تستقبل المريض، تتناول منه تذكرة العلاج، تسجل بياناتها في دفتر كبير أمامها، ثم تقدمها للدكتور الجديد، وتتابعه باستغراب، ما هذه الجرأة والثقة؟!، قالت تحدث نفسها:

— هل هذه جرأة وثقة أم أنها وقاحة؟!

تناول الدكتور حسن مرعى كيس الأدوية من المريضة، بسط الأدوية أمامه على المكتب، سأل بهدوء:

— من كتب لكِ هذه الأدوية؟

— دكتور كان هنا يوم الخميس الماضي، طويل وقمحي وعينه خضرا!

فبادرته المرضة قائلة:

— الدكتور عبد الحميد!

زم شفتيه استياءً، ثم جمع الأدوية في الكيس البلاستيكي مرة أخرى وقذف به في سلة المهملات بجواره، فقالت له المريضة وعلامات الغضب تبدو على وجهها:

— لكنى استرحت على هذا الدواء يا دكتور!

فقال متسائلا:

— لماذا جئتِ إذن اليوم؟!

قالت:

— عندى شكوى أخرى، الالتهاب شفى لكنى أشعر الآن بمغص في بطني.

فقال بخبث وتهكم:

— إذن لا تسأليني لماذا رميت الأدوية؟

تسربت إلى قلبه سعادة خفية حين سمعها تقول بصوت مسموع:

— هل العلاج فيه حاجة تضر البطن؟!

كانت المرضة مازالت تتابع الطبيب بدهشة، قالت لنفسها:

— يبدو أن طبيعته مختلفة عن كل الأطباء الذين مروا علىَّ، يجب أن أنتظر وألا أتسرع في الحكم عليه!

وتذكـرت كلام مدحـت وميرفـت عـن المهـارات الخياليـة الـتي يتمتـع بهـا هـذا الطبيـب، وتذكرتهـم وهـم يقولـون:

– مجيئه سيكشف عيوب كثير من الأطباء.

نظـرت إليـه ثانيـة وهـو يقـول لمريـض وهـو ينحـى العـلاج جانبـا:

– قـل الحمـد لله أنـك مازلـت بخـير بعـد تناولـك لهـذا العـلاج!

التفت الدكتور حسن إلى الممرضة وقال ساخرا:

– أحيانـا يكـون المـرض أرحـم مـن العـلاج، وخصوصـا إذا كان بهـذه الصـورة!

وجه حديثه إلى المريض مرة أخرى قائلا:

– أنـت بالـذات لا تأخـذ علاجـا مـن أحـد إلا إذا عرضتـه علـيَّ وإلا ضيعـتَ نفسـك!

قال المريض بتوسل:

– الله يبارك فيك يا دكتور، قل لي مواعيدك!

– يوم الثلاثاء من كل أسبوع!

قالت الممرضة بعد أن خرج المريض:

– الدكتـور عبـد الحميـد معـروف أنـه دكتـور ممتـاز، كيـف لم

ينتبـه لهـذه الأخطـاء؟!

سألها الدكتور حسن بخبث:

– أنتِ عملتِ في مكان آخر غير هذه المستشفى؟

– لا!

فقال لها بثقة:

– إذن لا تحكمى على علم أحد

ثـم أخـرج مـن جيبـه جنيهـا، وطلـب منهـا أن تبعـث العامل لإحضـار مشـروب بـارد لهمـا، نـادت علـى العامـل الـذي جـاء في تـراخ، فبـادره الدكتـور حسـن قائـلا:

– هات زجاجتين كوكاكولا!

قالت له الممرضة محاورة:

– إذا كنـت أنـا غـير قـادرة علـى تقييـم الدكتـور عبـد الحميـد! لكـن باقـي الأطبـاء! هـم أيضـا غـير قادرين؟!

فتمتـم ضاحـكا وقـد فـرغ مـن تحريـر تذكـرة دخـول لمريـض آخـر (الأعـور في وسـط العُمْـيِ سـلطان)

وتناول زجاجة الكوكاكولا من يد العامل وهو يقول له:

– خلِّ الباقي لك!

-7-

التقت عيناهما لأول مرة بعد سنوات من القطيعة، قال الطبيب المتلئ الكتفين والصدر بحزم:

- من فضلك لا تضع يدك مرة أخرى على مريضي يا دكتور!

رد الدكتور عبد الحميد بثبات:

- أي مريض تقصد؟!

فقال الدكتور حسن بحدة:

- مريض البواسير!

- لقد كتبتُ له مسكنا ليس إلا!

- كان في إمكان الممرضة أن تتصل بي أنا وتسألني!

فقال الدكتور عبد الحميد بسخرية:

- إذن لا داع لأن أبقى أنا فى النوبتجية!

واحتد الدكتور حسن أكثر قائلا وهو يشير إلى الأطباء بإصبعه:

- إذا سمحت لنفسك أن تتدخل في حالات الزملاء فهذا يخصهم هم ولكن حالاتي أنا لا تتعامل معها من قريب أو بعيد.

احتج الزملاء على كلام الدكتور حسن، قال أحدهم:

- كلنا هنا لخدمة المريض، وليس هناك حالة تخص هذا أو ذاك!

وقال آخر:

- كلامك بهذه الصورة مع الدكتور عبد الحميد ليس له مبرر!

فقال الدكتور حسن بعصبية:

- بل هناك ألف مبرر ولكن لا داع للخوض فيها الآن!

نظر الأطباء كل إلى صاحبه بدهشة، لم يروا من قبل من يتحدث معهم بهذا الأسلوب، قال نائب جراحة لزميله وهو يبتسم:

- المبرر واحد فهل نبت له ألف فرع!

ساد الصمت، اصطحب الدكتور عثمان أخصائي العظام زميله عبد الحميد وخرجا، سارا صامتين في الردهة، وما إن دخلا كشك العظام حتى قال الدكتور عبد الحميد:

– هل يعجبك ما قاله الدكتور حسن؟!

فقال الدكتور عثمان بهدوء:

– دعك من هذا الهراء فرسالتنا أهم، وقل لي هل أحضرت بيانات المرضى للجنة؟

جاهد الدكتور عبد الحميد في إخفاء علامات التوتر الظاهرة على ملامحه وقال بهدوء مفتعل:

– طبعا أحضرتها... معي في السيارة.

فقال الدكتور عثمان:

– اللجنة جمعت من بعض الأخوة مبلغا لا بأس به، فلا ترد حالة من الحالات التي تستحق مهما كان المبلغ المطلوب.

فسأله مستفسرا:

– هل جمعتم المبلغ المقرر على الأعضاء؟!

فقال الدكتور عثمان مبتسما:

– هذا المبلغ ليس له علاقة بما يدفعه الأعضاء شهريا، بل هو مال زكاة وبعض الصدقات.

قال الدكتور عبد الحميد وكأنه يردد جملة اعتاد على سماعها:

– فاعلوا خير طبعا لا يرغبون في ذكر أسمائهم.

قال الدكتور عثمان مستطردا:

– على العموم إذا قابلتك حالة مرضية تحتاج إلى أي مبلغ ادفع أنت ثم أخبرني بعد ذلك لتسترد ما دفعت، وأقول لك للمرة الألف حذار أن يعلم أحد بذلك، حتى لو تعرضتَ لخطر وكانت سلامتك في الإخبار، فمبدأ اللجنة السرية التامة وسلامة الكل مقدمة على سلامة الفرد، حتى يستمر الخير.

فقال الدكتور عبد الحميد:

– بارك الله في هؤلاء الأخوة، الواحد منهم يدفع سرا كالجندي المجهول، ويتراءى للناس أننا نحن الذين ندفع لهم، رغم أنني أتحرى أن أقول إن هذا المال من فاعل خير ـ مع عدم التحديد طبعا ـ وليس مني ولكن رغم ذلك أنا الذي يحظى بالدعاء!

ثم قال متأثرا:

– بارك الله فيهم.

فرد الدكتور عثمان:

– وبارك فيك يا دكتور عبد الحميد، فما تفعله أنت أكثر، تدفع شهريا ما هو مقرر عليك للجنة، وتشترى من

جيبك الأدوية غير المتوفرة بالمستشفى للمرضى الفقراء، وقليل دائم خير من كثير منقطع.

ثم ابتسم إلى الدكتور عبد الحميد وقال:

- الحمد لله ذهب الغيظ، كنت أخشى أن يغلبك الشيطان فتخرج عن صوابك مع الدكتور حسن.

وضحك ملء فيه وقال:

- حينما هممتُ لاصطحابك إلى هنا كي لا تقع في خطأ تذكرت ما حدث للحجاج فكدت أضحك أثناء انفعالكما.

فقال الدكتور عبد الحميد:

- وماذا حدث للحَجَّاج بن يوسف الثقفي؟

فقال الدكتور عثمان وهو يضحك:

- تعرض للغرق في يوم من الأيام فأنقذه أحد الرجال، وحين عاتب الحاضرون هذا الرجل الذي أنقذ هذا الطاغية ولم يتركه يغرق فيتخلصون منه، فقال لهم إنه خشي أن يظفر بالشهادة عندما يموت غريقا فيدخل الجنة، ولهذا أسرع لإنقاذه.

فقال الدكتور عبد الحميد وهو يضحك:

- أنا ذكرتك بالحجاج؟!

_8_

جلس الدكتور عبد الحميد، يحصى الحالات التي تعامل معها اليوم، بعد أن أذن لعم سعيد فتح الله بالانصراف، ثلاث حالات خُرّاج، واحد بالإبط وواحد بالإلية نتيجة حقنة غير معقمة، وواحد بثدي امرأة مرضعة، إجراء عملية إصلاح لفتق أيمن، حالة تسمم درقي طلبت منها تحليل وظائف الغدة الدرقية، حالتان غرز، حالة ناسور شرجي حولت إلى القصر العيني لأنها تعانى من استسقاء بالبطن نتيجة تليف بالكبد، وبينما هو كذلك سمع طرقات مداعبة على الباب، فركز بصره على الباب وهو يقول:

— تفضل.

برز له شاب في جلباب أبيض شديد البياض، وياقة منشاة، وما كاد يراه حتى هب واقفا وقد شملت ملامحه ابتسامة عريضة:

— أهلا وسهلا يا أستاذ مجدي، أين أراضيك هذه الأيام؟

— أنت عارف موسم البطاطس، ومشاغله الكتيرة.

ثم ذهب الدكتور عبد الحميد إلى المطبخ، فوضع إبريق الشاي فوق موقد البوتاجاز ذي العين الواحدة، وعاد يرحب بصديق عمره، ورفيق صباه، المدرس بالمدرسة الابتدائية:

— والله لك وحشة يا أستاذ مجدي.

— أنت أكتر والله يا دكتور، لكن الحياة كلها مشاغل كما تعلم، وبالمناسبة... لماذا لا تستثمر بعض أموالك في هذا الموسم فهو استثمار حلال؟

كان يتحدث وهو يعبث بالمسبحة في يده، فأجابه الدكتور عبد الحميد مبتسما وهو يهم لإحضار الشاي:

— أكره أن أخوض فيما ليس لي به علم.

— هذا الاستثمار لا يحتاج إلى علم، كل ما عليك هو أن تشترى تقاوي البطاطس لفلاح من الفلاحين الذين لا يقدرون على تكاليف زراعة أرضهم بها ، وما أكثرهم، ثم تشترى الكيماوي الضروري لها، وفى نهاية الموسم، تقريبا بعد ثلاثة شهور، تأخذ نصف ثمن الإنتاج.

— لا يا سيدي، دعني فيما أعرف، وافعل أنت ما تشاء.

تحدثا كثيرا، وتطرقا في حديثهما إلى كل شئ، تحدث مجدى عما دفع من مال لمشاركة عبد العاطى، فأرضه طيبة، وهو معروف لدى الجميع بأنه فلاح واع، وتحدثا عن أحوال القرية وضعف الإنارة الكهربائية بها، وكيف أن

الأطفال يعملون نهارا ويصعب عليهم المذاكرة ليلا بسبب ضعف الإنارة، وتحدثا عن عدم وجود صرف صحي مما يضطر الناس إلى رمي مخلفاتهم من مياه غير نظيفة في الطرق، وما يسببه ذلك من انتشار الأمراض، وتناولا مواضيع كثيرة أخرى، وقبل أن يهم مجدي بالانصراف سمعا طرقات مداعبة أخرى على الباب فقالا في صوت واحد:

— تفضل.

فهل عليهما جمعة عبد العظيم بوجهه الأسمر وهو يقول ضاحكا:

— السلام على من يرد عليَّ السلام.

فردَّا في نفس واحد وهما ينهضان ضاحكين:

— عليك السلام ورحمة الله وبركاته.

وبادره مجدي بعد أن عانقاه بشدة وقبل أن يجلس:

— كيف حالك أيها الضابط الهمام، جئت في موسم البطاطس، طبعا تريد أن تستثمر مالك.

— أنا على الجبهة أحميكم وأوفر لكم الأمان، أسهر لتناموا آمنين، وأعود لأجدكم هنا تتحدثون عن المال والبطاطس؟ يا للمهزلة!

-9-

قفزت شمس نحو حقيبتها فالتقطتها، كيمامة بيضاء تهوى فجأة لتلتقط حبة قمح، قبل أن تلتقطها أخرى، وانتشر شعرها الأسود الفاحم وراءها خيوطا من حرير يحملها الهواء على كفيه، وكانت منى تحاول فتح الحقيبة لترى ما بها، احتضنت شمس حقيبتها وأسبلت عينيها فترة طويلة، كأن جفنيها الرقيقين قد أطبقا على شئ ثمين، تخشى أن يسقط إن هي رفعتهما، ولم تفق إلا عندما جذبت منى منها الحقيبة مرة أخرى، وقفزت فوق السرير، فتبعتها شمس التي لم تزل في خدر حتى حين سألتها منى:

— ألم يعلم بعد أنكِ تحبينه؟

— لا يهمني إن كان يعلم أم لا، المهم أنني أعرف جيدا مشاعري أنا، سأظل أحبه حتى إذا أحب غيري.

— حبك برص... يا مجنونة.

— ما هي المسافة بين قريتك وقريته؟

— كيلومتر واحد.

– أتريدين أن أخبره أنا؟

قاطعتها بحدة:

– لا، إياكِ.

– إذن حاذري من ميرفت، ولا تتحدثي معها إلا في العمل.

– لماذا؟

– اسمعي ونفذي فقط ولا تسألي.

لم تُرِد منى أن تدخل الحزن على صديقتها، وهى في كامل نشوتها، فميرفت ممرضة الاستقبال، لا تدع فرصة إلا وتتحدث فيها عن علاقة الدكتور عبد الحميد بشمس، وتدعى أنها شاهدتهما معا في خلوة أكثر من مرة، ولم ينصت إليها إلا قليل من الأطباء والممرضات.

حبست منى دموعها وهى تضم رأس صديقتها إلى صدرها، واستغرقت في التفكير، يا ليتنا ما عملنا في هذا المجال، نحب ولكن ليس من حقنا أن نسعد بمن نحب كباقي البشر، ألسنا مثل كل الناس لنا قلب يحب ويخلص، لماذا يعاب زواج الطبيب من ممرضة؟! هل نحن كائنات أخرى نختلف عن المدرسات والطبيبات والموظفات الأخريات؟! هل ممكن أن يحبها الدكتور عبد الحميد ويتزوجها؟

أرهق التفكير ذهن منى، فضربت شمس على ظهرها، وقالت تقطع الصمت الطويل الكئيب، وقد لبست ابتسامة على وجهها:

– أنتِ نمتِ؟ قومي يا حبيبتي، حان ميعاد توزيع العلاج.

★★★

في الصباح سلمت شمس قسم الجراحة لعفاف، وسلمت منى حجرة العمليات لليلى وانصرفتا معا، وقرب البوابة كانت ميرفت تقف أمام الاستقبال، وما إن لمحتهما حتى صاحت وهى تنظر إليهما بطرف عينها:

– يا جابر، ألم تر الدكتور عبد الحميد؟

نظرت إليها منى نظرة حادة، وأشارت إلى شجيرة صغيرة ذابلة تسأل جابر:

– لماذا تبدو هذه الشجرة صفراء هكذا يا جابر؟

قال جابر:

– لا أعلم؟ نرويها ونهتم بها لكنها ذابلة باستمرار.

ردت منى وهى تنظر إلى ميرفت بطرف عينها:

– لابد أن أرضها رديئة ويجب أن تسبخ لينصلح حالها.

قالت شمس لميرفت بصوتها البريء:

– صباح الخير يا ميرفت.

غادرتا المستشفى وابتلعهما الطريق المزدحم.

_10_

بلغ الخلاف أشده، وأحاط الزملاء زميلهم المناوب معهم حسن مرعي, حاولوا جاهدين أن يخففوا عنه، لكن دون جدوى، فجذوة النار التي ألقى بها الدكتور عبد الحميد لم تزل متأججة في صدره، فبدا متجهما غاضبا، فاليوم يوم نوبتجيته، والمفروض أن يكون هو سيد قسم الجراحة، لن يغفرها أبدا لهذا الطبيب، الذي جاء ليتعدى عليه في محراب عمله، ألا يكفيه الماضي وما يحمله من سواد؟! لماذا يتدخل هكذا في حالة لا يعرف عنها شيئا؟، لم يستقبل الحالة ولم يُدخِل المريض، فلماذا يفعل كل هذا؟ ربما تقاضى منهم أجرا ويريد أن يعطيهم المقابل! إن لم تكن فعلا هذه هي الحقيقة فما الذي جعله يترك عيادته في وقت ذروة العمل بالعيادات الخاصة ـ ما بين المغرب والعشاء ـ ويأتي إلى المستشفى في يوم ليس نوبتجيا فيه؟ رغم علمه بأن بالمستشفى أخصائي جراحة، ثم إنهم ليسوا من قريته وإنما من قرية الدكتور حسن، ظل الدكتور حسن يفكر بغضب، وقد عقد العزم على التصدي له، قال لزملائه:

- أقنعوني.. مقابل ماذا يحضر إلى المستشفى فى ساعة مثل هذه وهو غير نوبتجى؟

- الرجل قال لك إنهم أقارب جاره، وهذه حادثة، وكما علمت فالمصاب ولد على خمس بنات، يعنى أهله قلقون عليه.

- المفروض كان يعمل مثل غيره، يقول لهم فيه أخصائي هناك سيقوم بالواجب، وكان كتب لهم توصية، لا أن يحضر بنفسه ويتدخل في عملي.

- يا دكتور حسن هذا أمر طبيعي بيننا كزملاء، لعلك تكون غضبت لرأيه في وجود نزيف داخلي في بطن المريض، وإن هذه الحالة لا تحتمل الانتظار للغد كما اقترحت أنت؟

- لكن هذه حالتي وأنا مسئول عنها.

- الموضوع ليس موضوع مسئولية، هذه حياة مريض يا دكتور حسن!

- يعنى هو دكتور وأنا منجّد؟! لعلمكم، أنا أستبعد وجود نزيف داخلي، وأرى أن ما يفعله إنما هو فيلم من أفلامه، أولا عضلات البطن ليست مشدودة، ثانيا المريض لم يشعر بالألم أثناء جس البطن، ثالثا بالطرق على البطن ترن مثل الطبل وليست مكتومة!

ثم تحرك ناحية عنبر المريض وهو يقول:

– تعالوا معي إذا سمحتم!

وذهبوا جميعا إلى المريض، الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره، كان يبدو شاحبا بصورة واضحة، أمر الدكتور حسن الممرضة بقسوة:

– أنتِ واقفة تتفرجين؟! اكشفي بطن المريض.

ثم وضع كفه اليسرى على بطن المريض، جهة اليسار، مباعدا ما بين أصابعه، وراح يطرق فوقها بإصبع الوسطى لليد اليمنى، ويدقق السمع، لاحظ الواقفون علامات قلق ترتسم على وجهه وهو يقول:

– لا توجد أية علامة ممكن أن نعتمد عليها ونفتح بطن المريض ويمكننا أن ننتظر، ولو ظهرت علامات تؤكد النزيف الداخلي بعد ذلك يصبح من حقنا أن نفتح بطن المريض.

ثم تساءل بلهجة استنكارية:

– كيف نفتح بطن مريض لمجرد الشك؟ إذا أراد هو أن يفعل ذلك فليأخذ المريض وليتحمل المسئولية.

قال أحد الأطباء أثناء الخروج من العنبر:

– المشكلة الكبرى هي عدم وجود جهاز سونار، كان من الممكن أن يحسم الخلاف في لحظة.

استأذن الأطباء من الدكتور حسن مرعى، الذي جلس في مكتبه متربصا لما سوف يتفجر بعد عودة الدكتور عبد الحميد الذي خرج منفعلا، ولما ابتعد الأطباء عن قسم الجراحة، أبدى نائب الباطنة اعتراضه على طريقة الطرق على بطن المريض التي قام بها الدكتور حسن، قائلا إنه كان يجب أن يكون الطرق أكثر من مرة مع تغيير وضع المريض، وهو مستلق على ظهره ثم وهو راقد على شقه الأيمن ثم الأيسر، كما أخبر هذا الطبيب أن نبض المريض مائة وخمسون نبضة في الدقيقة مما يرجح مع وجود الشحوب الشديد وجود نزيف داخلي.

★★★

لم تمر نصف ساعة حتى عاد الدكتور عبد الحميد إلى قسم الجراحة، وجلس في نفس المكتب الذي يجلس فيه الدكتور حسن، ثم حضر الأطباء المناوبون واحدا تلو الآخر، وبعد لحظات من الصمت وتبادل النظرات، حضر المدير، ألقى التحية على الجميع كل باسمه، ثم دخل عنبر المريض وهم يتبعونه، وبعد أن فحص المريض بنفسه وكان أخصائيا للباطنة رجح رأى الدكتور عبد الحميد، لكن معارضة الدكتور حسن جعلته يكتب في تذكرة المريض تكليفا رسميا للدكتور عبد الحميد بالتعامل مع المريض.

وفى الحال أدخل المريض غرفة العمليات، وبدأ الدكتور عبد الحميد عمله وقد اشرأبت حوله الأعناق، وهو يفتح جدار البطن ثم الغشاء البريتونى، فبدت الأمعاء عائمة في بحيرة من الدم السائل الأحمر الداكن المتخثر، فأمر الدكتور عبد الحميد المرضة أن تحضر وحدة دم من نفس الفصيلة بعد عمل التوافق المباشر، وتجهز وحدة أخرى لحين طلبها.

-11-

اتكأ الدكتور عبد الحميد على كرسيه في عيادته الخاصة المطلة على الجسر الغربي، استدار بالكرسي، ومن خلال زجاج النافذة النقي التقت عيناه بصفحة الأفق البعيدة، كان النهار يسحب آخر جندي من جنود الضوء، وتقدم الليل نحو موضع القيادة بخطوات حثيثة، وظهرت آثار المعركة الأبدية بين الليل والنهار، بين الشر والخير، خطوط حمراء وأخرى رمادية، يتداخلان تداخلا ضبابيا، أفاق الدكتور عبد الحميد على الصرير المنبعث من دوران أكرة الباب، أومأ إليه عم سعيد فتح الله إيماءة فهمها وخرج، فدخل شاب ذو ثياب بالية، يرتدى حذاء انضغطت حافته الخلفية تحت كعبيه، كانت الدموع تسح من عينيه، وقفت أمه بجواره كقوس صدئة، تنتحب بصوت متهدج، ربت الطبيب على كتفه، وأجلسه أمام المكتب، وكانت أمه قد جلست في مقابلته، فباغته المريض بسؤاله عما يتقاضاه نظير إجراء عملية استئصال الزائدة الدودية، فابتسم الطبيب وقال له:

— الكشف أولا، ثم الكلام عن الأتعاب بعد ذلك.

فحص الطبيب مريضه بدقة، وسجل في الدفتر بعض الملاحظات، درجة الحرارة ٣٧,٨°، النبض ١٢٠ نبضة في الدقيقة، ظاهرة الارتداد موجبة، كما سجل بعض الملاحظات الأخرى، وكانت دهشة المريض فريد شرف عظيمة عندما علم أن هذا الطبيب لا يتقاضى سوى سبعين جنيها نظير إجراء هذه العملية.

كان هذا الشاب قد عاد لتوه من عيادة الدكتور حسن مرعى في القرية المجاورة، إثر إصابته بمغص مفاجئ بالبطن، أعطاه الدكتور حسن حقنة، وطلب منه أن يبقى بالعيادة حتى يعود إليه، ولكن قلب الأم جعلها تأخذ ابنها وترجع به إلى المنزل، وقد ضاق صدرها من تأخر الطبيب، ولجأت إلى حلاق الناحية، فلما سمع منها ما حدث، ذهب معها على الفور إلى المريض، وسأله إن كان قد تقيأ، فرد الشاب بالإيجاب، فثار عليهما، أخبرهما أن الدكتور حسن شخص المرض التهاب بالزائدة الدودية، وأنه سوف يطلب مائتين من الجنيهات قبل أن يمسك بيده المشرط، وعنفهما أنهما لم يأتياه في بادئ الأمر، فقالت له العجوز الهتماء:

— قلت له هذا الكلام والله يا ابنى، لكنه لم يستمع لي، وسمع كلام ابن شيخ البلد والمزين البارد، مزين العزبة البحرية لا تؤاخذني يا بنى فليس قصدي، وقال إن ابن شيخ البلد أعطى له ورقة، يوصى الدكتور، لأنه كما

يقول له دلال عليه، ورغم ذلك هبش الدكتور سبعة جنيات مقابل الكشف فقط.

عموما الحمد لله أن جاء في الوقت المناسب، وإلا كان سيصبح فريسة في يد من لا يرحم، وذهب بهما الحلاق في الحال إلى الدكتور عبد الحميد، سلمهما لعامله وأوصى عليهما ورجع.

نظرت أخت فريد ـ التي وصلت في التو ـ إلى أخيها وهو يتلوى في فراشه من المغص، ومالت برأسها جانبا ناحية النافذة، تجفف دموعها وأنفها بطرف طرحة سوداء باهتة، تناولت من أمها، لفافة صغيرة من النقود الورقية، أخرجتها الأم بيد مرتعشة من كيس معلق بعنقها، ثم دسته إلى صدرها مرة أخرى، هرولت الأخت إلى الصيدلية، لإحضار العلاج اللازم لإجراء العملية، وعادت لتأخذ مزيدا من النقود، ازدادت رعشة يد الأم وهي تخرج لفافة أخرى من النقود الورقية، منك لله يا حلاق الناحية، هي المستشفى كان مالها، قال إيه فلان وعلان ماتوا فيها من الإهمال، سامية بنت مدكور ماتت وهي تلد، وفتحي ابن عشماوى مات أثناء العملية، ربنا يجيب ويحط عليك يا حلاق البلد.

★★★

حضرت الممرضة شمس مع أخيها محسن، وما إن رآهما الدكتور عبد الحميد حتى هب واقفا، سلم عليهما، ودخلا

سويا ـ هو وشمس ـ حجرة العمليات، مكثا قليلا ثم خرجت شمس فنادت على المريض ليدخل، وأغلقت باب الحجرة، لم يشأ الطبيب أن يكلف المريض أجر طبيب التخدير، فقام هو بتخديره معتمدا على خبرته، واستخدم عقار الكيتالار كنوع مأمون من المخدرات، وبعد فترة وجيزة كان الشاب نائما في فراشه بعد أن أجريت له العملية التي لم تستغرق أكثر من ثلث ساعة، وبدأ يفيق من البنج، سمعوه يتمتم باسم نبوية جارتهم، ثم يغيب عن الوعي، ثم يفيق ثانية يتمتم بكلمات أخرى تفهمها العجوز, حضن برسيم، فول مدشوش، ربنا يطرح فيكم البركة. يستفسر الطبيب، تقول الأم خائف على العنزتين والعجل، مَهْر عروسه، يصرخ، يضحك، يبكى، تستفسر الأم، يقول الطبيب، هلوسة البنج هذا النوع بالذات، يسبب هلوسة شديدة لكنه مأمون عن غيره.

-12-

ركـز الدكتـور حسـن مرعـى بصـره علـى خـدش بسـطح المكتـب، وقـد أسـند جبهتـه عنـد منبـت الشـعر بكفـه اليسـرى مرتكـزا بكوعـه علـى المكتـب فبـدا كمـا لـو كان يقـرأ كتابـا، فتـح العامـل البـاب ودخـل، نـاداه مرتـين، لم يسـمع، اقـترب العامـل ومـد يـده إلى حيـث ينظـر وهـو يهزهـا مداعبـا:

— من أخذ عقلك يا دكتور؟

اعتدل الدكتور حسن ببرود وقال:

— ماذا فعلت يا فالح؟

— كل خـير، أرسـلت مـن سـيأتي لنـا بالخـبر اليقـين، في سـاعة زمـن فقـط، هـل أعمـل لـك قهـوة؟

— اعمل.

قالهـا الدكتـور حسـن وهـو يأخـذ نفـس الوضـع السـابق، وينظـر إلى نفـس الخـدش، آه يـا عبـد الحميـد، رصيـدك مـن السـواد عنـدي يـزداد يومـا بعـد يـوم، أخـوك قتـل أخـي، مـاذا

فعلت من أجل صديقك؟! لم تفعل شيئا, قلتَ مشاجرة بين جاهلين، وتركتَ الأمر لأبيك فدفع ثمنا بخسا، كان والدك أكثر منك وفاء، بذل ما يستطيع مع والدي، نعم يا صديقي جئتُ إليك منتقما، لن أقتلك كما قتل سمارة أخوك عصاما أخي ، ولكنى سأقتلك بطريقة أخرى لم تحسب لها حسابا، لا يهمني أن يذهب إليك كل المرضى من قريتك أو حتى من قريتي، دعهم يذهبون إليك كالجرذان الزاحفة وإن غدا لناظره قريب.

لم يبق في فنجان القهوة سوى الرواسب، سأل نفسه: متى أحضر ناصر فنجان القهوة؟

★★★

بعد صلاة العشاء، دخل عليه ناصر المكتب، وأخبره أن المريض وصل لعيادة الدكتور عبد الحميد، وهو قاب قوسين أو أدنى من إجراء العملية.

— كيف عرفت ذلك؟!

فأخبره أن ابن أخيه ذهب إلى منزل شمس المرضة، وقابل أمها وسألها:

— شمس موجودة؟

— لِمَ؟

— أمي تريد أن تحضر إليها لتأخذ حقنة.

– ليست هنا.

– أين هي؟

– عند الدكتور عبد الحميد، تساعده في عملية جراحية.

– هل ستتأخر؟

– الله أعلم، يمكنك أن تعود فتسأل بعد ساعة.

وأخبره ناصر أيضا أن ابن أخيه ذهب بالدراجة إلى عيادة الدكتور عبد الحميد، يسأله إن كان يستطيع أن يحضر أباه للكشف الآن، فوجد الدكتور ولمح شمس وهى تدخل حجرة العمليات، وعند خروجه قابله عم سعيد فتح الله على السلم، وهو يسلم عليك يا دكتور ويسأل هل الأمانة جاهزة.

ثم وجه ناصر إلى الدكتور حسن السؤال:

– ما هذه الأمانة التي يسأل عنها عم سعيد؟

– وهل من الضروري أن تعرف كل شئ؟

– لا يعنيني... وإني لأظنها بعض الأدوية المقوية للأعصاب ولكن لماذا لم تفعل مع المريض كما كنت تفعل في العادة؟

– مثل ماذا؟

– كنت علقت له ٥٠٠ سم محلول جلوكوز ٥٪ وجعلت انسيابه بطيئا، ليظل المريض مرهونا حتى تعود.

_13_

وقف الدكتور حسن مرعى على يمين سرير المريض، ووقفت شمس في مقابلته على يسار المريض، طلب منها وهو يمسك تذكرة المريض أن تعطيه حقنة نوفالجين وحقنة أفيل بالوريد، نبهته أنه قد دون في التذكرة حقنة مورفين وليس نوفالجين أو أفيل، أخبرها أن المريض لا يتحمل المورفين وأن تعطيه ما ذكر، سألته:

— ولكن ماذا أسجل في تذكرة المريض؟

— يمكنك أن تسجلي المورفين طالما هو المدون بالتذكرة.

كان المدير قد وكل إليه مسئولية المخدرات، يحفظها ويصرف منها للأقسام الأخرى، بناء على طلبيات تكتبها الممرضات من واقع ما هو مدون بتذاكر الدخول، قال لها وهما يسيران في الردهة:

— أين كنتِ بالأمس؟

— كنت في المنزل.

– كتبت بالأمس بعض الحقن لمريضة لكنها عادت إليَّ بعد أن ذهبت إليك وقالت إنكِ غير موجودة بالمنزل.

– ربما تكون حضرت عندما كنت عند الدكتور عبد الحميد.

– أ كنتِ مريضة؟

– لا... والحمد لله.

– إذن فلماذا كنتِ عنده؟

– كنت أساعده في إجراء عملية.

– عملية ماذا؟

– زائدة دودية.

– لمن؟

– لمريض.

– ما اسمه؟

– فريد.

شعرت شمس وهي تدخل حجرتها أنها تخلصت من سجن، نعم سجن, سجن أسئلة واستفسارات كثيرة، عن الدكتور عبد الحميد وعن غيره من أطباء الجراحة، العمليات التي يجرونها في عياداتهم الخاصة، أنواعها، ما يتقاضونه

مـن أجـر مقابـل هـذه العمليـة أو تلـك، وعندمـا تقـول لا أعـرف، يقـول لهـا زميلتـك فلانـة مـن بلـده، ألم تعـرفي منهـا، أسـئلة كثـيرة تجعلهـا تمـل، وتنظـر عندمـا يوضـع جـدول نوبتجيـات الأطبـاء أول مـا تنظـر إلى اسمـين، الدكتـور عبـد الحميـد والدكتور حسـن مرعـى، فتتفـاءل أو تتشـاءم، وتبـذل محـاولات لتعديـل نوبتجياتهـا لتتوافـق مـع الدكتـور عبـد الحميـد أو تتفـادى الدكتـور حسـن، ولكـن هيهـات كل البنـات مثلهـا.

_14_

مدت يدها بكوب صغير من الشاي، فتناوله الرجل وهو يجلس القرفصاء في مقابلتهم، كان الدكتور عبد الحميد يتابع العجوز بجلبابها الأسود ورأسها المعصوب بطرحة مهترئة، ويتابع الفلاح الذي تناول كوب الشاي وهو يمعن النظر في الكوب كلما حسا منه حسوة كأنما يحسب ما بقى فيه، وقد تدلى شاربه الأشمط فغطى شفته العليا، وسأله مجدي وهو يخفى سعادة تطل من عينيه:

— كيف حال البطاطس يا بطل؟

— مثل الفل، العِرْش أصبح هكذا!

وأشار الرجل بيده لمسافة تقرب من النصف متر من الأرض، فحدق مجدي في وجه الدكتور عبد الحميد وهز رأسه راضيا، ثم التفت إلى عبد العاطى الفلاح الواعي وقال له:

— نبقى نبيع إن شاء الله للحاج مرسى.

فقاطعه الرجل بحدة:

– لـن نبيـع إلا للحـاج حسـين، أنـت لا تعـرف النـاس، الحـاج مرسـى يدفـع الثمـن بالقطـارة، ومـت يـا حمـار علـى مـا يجيلـك العليـق.

فنظـر مجـدي إلى الدكتـور عبـد الحميـد وهـو يحبـس ضحكـة، ثـم نظـر إلى الرجـل وقـال لـه:

– الملافظ سعد يا عبده.

اسـتأذن الدكتـور عبـد الحميـد، عندمـا أتـاه مـن يخـبره أن بالعيـادة مرضـى كثيريـن ينتظرونـه، دعـت لـه أم مجـدي وهـو ينهـض قائمـا:

– ربنا يكثر مرضاك يا دكتور عبد الحميد يا ابن سعدية.

★★★

كان فريـد شـرف وأمـه ورجـال آخـرون ينتظـرون بالعيـادة، تذكـر الطبيـب أن اليـوم هـو اليـوم السـادس علـى إجـراء عمليـة فريـد، تمـدد فريـد علـى طاولـة العمليـات، ورفـع الطبيـب الضمـادة، فذهـل الجميـع، إذ لم يـزد طـول الشـق الجراحـي عـن اثنـين مـن السـنتيمترات، فيالـه مـن طبيـب بـارع، حاولـت الأم أن تقبـل يـده لكنـه سـحبها في حيـاء، ثـم دخـل حجـرة الكشـف، ينتظـر دخـول المرضـى الآخريـن، ولكنـه لاحـظ الصمـت يخيـم علـى العيـادة، فقـام يسـتطلع، فلـم يجـد أحـدا، كانـوا جميعـا قـد حضـروا مـع فريـد، فابتسـم ثـم قـام ليعـد

لنفسه الشاي، فقد اعتذر عم سعيد بالأمس عن المجيء، وكان الإحساس بالوحدة يتضاعف عنده يوما بعد يوم، ففي هذا اليوم يكون قد انقضى عام كامل على وفاة زوجته، بعد أن تركت له حسام ابن ثلاث سنوات وسارة بنت سنتين، ما أقسى أن يعيش الأب بعيدا عن أولاده، عام لم يمارس فيه الأبوة، إلا ساعات متفرقات، ناب عنه أخوه بهجات وزوجته، لم يقصرا لحظة واحدة، لكن هناك خيوطا أخرى يجب أن تظل ممدودة بين الأب وأبنائه، قال: يا رب، ثم راح يقرأ في المصحف.

_15_

تفتح أبواب عيادة الباطنة والأطفال والجراحة وحجرة تنظيم الأسرة وحجرة الجفاف ومعمل التحاليل على الممر الطويل، الذي يتعامد على ممر آخر قصير يضم عيادات النساء والجلدية والمسالك البولية وأشعة إكس، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بدقائق، حين انفرج الخناق الناتج عن كثرة المرضى المترددين على المستشفى، وبدت العيادات كلها شبه خاوية، ماعدا عيادة الجراحة، ظلت مزدحمة، وقد اصطف الناس في طابورين، أحدهما للرجال والآخر للنساء، فيخيل للناظر إلى هذه العيادة أنه ينظر إلى خلية نحل، الحركة والأصوات المتداخلة، وكأن وراء ذلك الباب زهورا فواحة، تجذب هذا الكم من النحل الذي يتزاحم ليحظى بامتصاص الرحيق الشافي، لا يفعل الدكتور عبد الحميد مثل باقي الأطباء، يسمعون من المرضى ويكتبون العلاج دون أن يكلفوا أنفسهم عناء القيام بفحصهم، متعللين بالأعداد الكبيرة، بل كان يعامل المريض كما يعامل مرضاه في عيادته الخاصة، ولا يعبأ بمرور الوقت، اليوم يوم

عيادته فلماذا يتعجل إنهاء عمله، وما الفائدة التي يجنيها إن هو أنهى عمله مبكرا؟

راحت الأم تهدئ من روع ابنها حتى تعطى الطبيب الفرصة ليفحصه فابتسم له الدكتور عبد الحميد وهو يداعبه، ثم جس بلطف ساقه، فصرخ الطفل، فقال له الدكتور وهو يبتسم بعد أن رفع يده:

— أهي توجعك؟

أجاب الطفل:

— نعم ، توجعني جدا !

فرد الدكتور عبد الحميد وهو يمسح على رأسه بحنو:

— فما بالى لا أشعر بشيء؟

فضحك الطفل وهو يقول:

— هي رجلك أنت؟!

وحرر له الدكتور عبد الحميد تذكرة دخول بتشخيص التهاب خلوي بالساق اليمنى. ثم دخلت امرأة عجوز، واشتكت له من صداع وزكام ففحصها بدقة، وعندما أمسك بتذكرة العلاج قالت له:

— دخلني يومين المستشفى الله يبارك فيك يا ابنى.

فقال لها مبتسما:

– حالتك بسيطة، ولستِ في حاجة للدخول!

فاقتربت منه وقرصته من عضده وهى تعض شفتها السفلي غامزة له:

– دخلني يومين يا ابني المستشفى آكل هبرة لحمة، أنا وحدانية وليس لى أحد!.

فأخرج من جيبه عشرة جنيهات ودسها في يدها وقال لها وقد ارتسمت علامات الحزن على وجهه:

– علاجك في البيت أفضل، وابقى عدى علىَّ هنا كل فترة.

ثم نظر إلى ممرضة الباطنة التي تنتظره وهى تمسك بيدها تذكرة دخول لمريض قالت إنه يعانى من التهاب كبدى قال لها مبتسما:

– معذرة على التأخير، من الطبيب الذي عرض الحالة علىَّ؟

فقالت له:

– الدكتور فؤاد.

وفى قسم الباطنة استقبله الدكتور فؤاد بالترحيب وهو يقول:

– بصراحة أنا قصدت ألا يرى الحالة أحد غيرك.

– هذا شرف كبير لي يا دكتور فؤاد، وربنا يجعلنى عند حسن ظنك.

كان المريض في الخمسين من عمره، وقد اصفر بياض عينيه صفارا يميل إلى اللون الأخضر، سأله الدكتور عبد الحميد:

– هل كان عندك مغص متكرر قبل هذه الأعراض؟

فقال الرجل بصوت واهن وأسلوب يدل على ثقافة :

– لا... بل كان ألما وليس مغصا.

– هل لاحظتَ شيئا على وزنك؟

– طبعا وزنى نقص كثيرا خلال أسبوعين!

كان المريض مستلقيا على ظهره، ثنى الدكتور عبد الحميد ركبتيه، وجس بطنه بدقة، طلب التذكرة ليطلع على التحاليل، ركز بصره على نسبة الصفراء وتحليل السكر، ثم سأل المريض ثانية:

– أخبرتني أنك لم تكن تعانى من السكر قبل ذلك، أليس كذلك؟

– كشفت قبل ذلك كثيرا، وأيضا حللت دما للسكر، لم يكن عندى سكر!

رجح الدكتور عبد الحميد أن المريض يعانى من صفراء انسدادية، ناتجة عن ورم خبيث برأس البنكرياس، وقال للدكتور فؤاد:

- هذا طبعا مجرد اجتهاد، والحسم يلزمه أشعة فوق صوتية، أو أشعة مقطعية، ولهذا أنصح حضرتك بتحويله إلى مستشفى جامعي.

فشكره الدكتور فؤاد على حسن رأيه، وأخبره أنه كان له نفس الرأى ولكنه أراد أن يأنس برأى آخر، شكره على تعبه واهتمامه فرغم أن حالات العرض ليست منوطة به اليوم إلا أنه كعادته دائما لم يتأخر، وبين له الدكتور فؤاد أن ثقته فيه هي التي دفعته لأن يستشيره.

عاد الدكتور عبد الحميد بعد ذلك إلى العيادة، فوجد المريض الذي كان قد طلب منه تحليل البول، كان المريض يبتسم وهو يتذكر مداعبة الدكتور عبد الحميد له حين قال:

- تعمل تحليل بول الأول، وعلى فكرة، أنت حظك حلو الوزارة بعتت لنا هذا الصباح بول ممتاز، يعنى سوف تحلل والبول من عندنا دون أن تغرم شيئا!

ظل الدكتور عبد الحميد يعمل حتى نهاية الوقت، أهو الوجد يا مدحت الذي يدفعه لأن يتقن عمله، أم هو الضمير الحي، هزت ممرضة العيادة رأسها في تعجب وهى تتذكر، ثم قالت وقد بدا على وجهها الإرهاق:

– رغم أن رجلي تنكسر يوم عيادتك ويسيح مخي، لكنني أكون سعيدة وراضية عن نفسي، لكن لماذا ترهق حضرتك المريض بأسئلة كثيرة قبل ما تكشف عليه؟

فابتسم الدكتور عبد الحميد، ثم انزلقت ضحكة عالية من بين شفتيه، وقد تذكر النكتة التي قالها عامل الجراحة، إن مريضا ذهب إلى جراح يشكو من زرقة داكنة بكيس الخصية، فشخصها الطبيب غرغرينة وقام باستئصالها، وبعد فترة عاد له يشكو من زرقة داكنة ببشره، فشخصها امتداد للغرغرينة السابقة وقام باستئصاله، وبعد فترة أخرى عاد له يشكو من امتداد الزرقة إلى العانة، فشعر الطبيب أن هناك مشكلة كبيرة، فراح يشحذ تفكيره ويعمله في هذه الحالة الغريبة، وأخذ يسأل المريض أسئلة دقيقة ليصل إلى السبب، سأله:

– هل عندك بنطلون أزرق؟

فأجابه المريض:

– نعم، وقد صبغته بصبغة زرقاء عندما بهت لونه، ذلك قبل العملية الأولى بحوالي يومين.

لملم الدكتور عبد الحميد أشياءه وهو يضحك، ولم يجب على سؤال المرضة وهي تلح في إخبارها عن سبب ضحكه، وخرج متجها إلى حجرة المدير كعادته.

ـ16ـ

استيقظ الدكتور عبد الحميد على طرقات متتابعة على الباب، لا يضايقه أن يستيقظ في آي وقت من الليل، ولكن ما يضايقه فعلا هو تلك الطرقات الشديدة المتلاحقة، فكان يشعر أن الطارق لا يعطيه الحق في ترتيب شأنه، وأيضا لا يسمح له حتى بالرد، وكأنه يتحتم عليه أن يكون دائما متيقظا متحفزا وراء الباب، فتح الباب فإذا باثنين من الخفراء، يحثانه على الإسراع لإسعاف بنت شيخ البلد، التي تعانى من آلام الوضع، ورغم نزلة البرد التي أصابته اليوم، ورغم الأمطار التي توحل الطرق، إلا أنه لم يتردد لحظة، نفض النوم، وهب نشيطا يجمع في حقيبته ـ بمساعدة عم سعيد فتح الله عامل العيادة الذي أحضروه معهم ـ بعض الآلات والمستلزمات الطبية وبعض الحقن، ترجل معهم يقاوم أكوام الطين المتجمعة في الحواري الضيقة، وبعد عناء طويل وصل إلى دار المريضة، سلمه عم سعيد الحقيبة ودلف إلى حجرة جانبية كان الرجال ينتظرون فيها، واصطحب أخو المريضة الطبيب إلى قاعة دفيئة، بها فرن طيني يتصاعد من

طاقته صهد حار، قام بفحص المريضة في تؤدة، ثم رفع رأسه ببطء وقال:

— إن شاء الله خير، الولادة ستتم في خلال ساعة

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحا، ولم تمر ساعة حتى كان المولود يصرخ بين يديه، تهللت الوجوه بالبشر، ضغط بجفتين شريانيين في مكانين متجاورين على الحبل السري في منتصف المسافة بين الوليد وأمه، ثم قطع بينهما، وألقى الوليد على السرير فتعهدته القابلة بالمسح وشفط السوائل من فمه بشفاط بلاستيكي صغير، وضعت إحدى طرفيه في فم الوليد والآخر في فمها، تسحب بفمها الهواء فتنجذب السوائل لأعلى لتتجمع في تجويف بين الطرفين، كان الطبيب مشتغلا بالمريضة التي لم تتخلص من المشيمة بعد، كان يضغط برفق فوق العانة ويسحب يده أثناء ضغطها لأعلى في اتجاه السرة، ثم يسحب الحبل السري برفق وحرص شديدين، وبعد مجهود طويل، استطاع أن يخلص المشيمة كاملة، استدار إلى الوليد وربط الحبل السري على مسافة عرض إصبعين من مكان اتصاله بالبطن وكان يشد طرفي الخيط الحريري الأسود بشدة فترتعش يداه من قوة الشد، وربط عقدة أخرى من جهة الخارج ثم قطع بعد العقدة الأخيرة وطهر مكان القطع بالكحول الطبي، ثم أنتصب واقفا وأخذ نفسا عميقا والعرق يتفصد منه، اقتادته إحدى النساء إلى حيث يجلس الرجال، هب الجلوس واقفين

يفسحون له مكانا بجوار الموقد، صب له أحد الرجال كوبا صغيرا من الشاي، ومد له يده قائلا:

– تفضل يا بركة.

احتساه ببطء شديد، تريث قليلا ثم عاد ثانية إلى غرفة المريضة، وقبل أن يجمع آلاته فحص المريضة مرة أخرى.

كان لازال ممسكا بالسماعة الطبية، حين بدت عليه علامات القلق الشديد، فهو لازال يتذكر بوضوح الفحص المعملي للمريضة، الذي اطلع عليه منذ شهور، جالت بخاطره الأضرار الجسيمة التي قد تحدث لها إذا لم يقم بواجبه نحوها على أتم وجه، خيم صمت مفاجئ كان الجميع ينظرون إليه بوجوه جادة، قال في حزم:

– المريضة في حاجة إلى حقنة كهذه .

وأشار إلى حقنة في حقيبته، فتناولها أخو المريضة، أخذ يقلبها بين يديه، ثم طلب من الطبيب إعطاءها للمريضة وليأخذ ثمنها، فبادره الطبيب والغضب يرتسم في عينيه:

– طبعا سوف أعطيها للمريضة لأن الوقت لا يسمح بشراء مثلها، ولكن علىَّ أن أقول إن هذه الحقنة ليست ملكي، وإنما تخص امرأة فقيرة، اشتراها لها فاعل خير، وهى معي على سبيل الأمانة فهي على وشك الوضع.

نظرت إليه جميع الوجوه بنظرات تفيض إعجابا وتقديرا، أعطاها الحقنة وبعض الحقن الأخرى، ثم وضع فارغ الحقن على منضدة كانت أمامه، التقط أخو المريضة فوارغ هذه الحقن، ثم دسها في جيبه، وأصابت الحاضرين دهشة بالغة عندما عرفوا أن ثمن الحقنة الأولى وحدها ثلاثمائة جنيه، ازداد تقديرهم لهذا القلب الكبير الذي يشمل الفقراء بهذه المبالغ الكبيرة، فهم لم يصدقوا أن فاعل خير هو الذي اشتراها، أخذ الطبيب أجره وثمن الحقن، ودعا الله أن يجد مثل هذه الحقنة بسهولة، شعر أهل المريضة بالراحة، فقد أمنوا خطر الولادة على الجنين في المرات القادمة، وخطر النزيف على المريضة في هذه المرة بإعطائها هذه الحقن، وهم الطبيب وعم سعيد بالانصراف، ولم يصلا إلى أول الطريق حتى لحق بهما نفر من الرجال، حملوا عنهما الحقيبة، ورافقوهما حتى بلغا شقة الطبيب السكنية، وعاد عم سعيد معهم يتأبط أخا المريضة.

★★★

في اليوم التالي بعد صلاة العصر مباشرة حضر ابن شيخ البلد ليطمئن الطبيب عن حالة أخته كما طلب منهم بالأمس، ثم شكا له من صداع مزمن ينتابه من وقت إلى آخر، فحصه الطبيب ولكنه لم يجد علة تفسر هذه الشكوى، فنصحه بزيارة أخصائي طب العيون، لعل هذه الشكوى يكون مبعثها ضعف بالنظر، لم يهتم الشاب بما قاله

الطبيب، وطلب منه أن يحضر له حقنة معينة، قال له:

— حقنة المورفين هي الوحيدة التي تريحني وتذهب عني الصداع، وأكون شاكرا إن أحضرت لي واحدة أو اثنتين.

— منذ متى وأنت تتعاطى هذه الحقن؟

— من زمان!

— من أين تحصل عليها؟

— أنا أعرف أنها ممنوعة، لكن لي أصدقاء ودودين مثلك.

رفض الطبيب بشدة، وراح ينصحه ويعدد له الأخطار التي تترتب على مداومة تعاطى مثل هذه المخدرات، ثم أخبره أن هذه المخدرات لا يمكن صرفها إلا في حالات معينة، وبتذكرة خاصة، فنظر إليه الشاب بحنق وزم شفتيه وقال له:

— لا تكلمني هكذا، فلست طفلا صغيرا، وأنا أعلم أنه في استطاعتك أن تحضر ما تشاء منها، مثل غيرك.

— أنا آسف، لا أستطيع.

فخرج ابن شيخ البلد حانقا على الطبيب دون أن يتفوه بكلمة أخرى، ورمقه عم سعيد فتح الله وهو ينفلت من باب الحجرة وقد تجعدت جبهته غيظا، فابتسم وهمس له:

— ما قلت لك يا طماع؟

تأثر الطبيب بشدة من أجل هذا الشاب الذي يصر على طرق باب الهلاك.

★★★

أنهى الطبيب عمله في العيادة، وطوى بعض الأوراق ووضعها في حقيبة اليد وانصرف، كان يخطو بقدمين حذرتين عبر المدق الضيق الذي صنعته أرجل المارة على جانب الطريق الموحل، طرق الباب وتنحى جانبا، تجمدت عليه نظرات عبد العزيز، ابن شيخ البلد، ماذا أتى به الآن، ألم أطمئنه في عيادته على أختي؟!، لابد أنه جاء لشيء آخر، لو صدقت ظنوني فلن أدعه يستريح لحظة بعد الآن:

— السلام عليكم، هل الحاج خضر موجود؟

— الحاج؟

فانبعث صوت من الداخل:

— من بالباب يا عبد العزيز؟

— الدكتور عبد الحميد!

— ولماذا تدعه بالخارج يا مسطول؟

وزعق بأعلى صوته:

— تفضل يا دكتور، البيت بيتك، فهذا الولد لا تعجبني أحواله هذه الأيام، يظل ساهما لفترات طويلة، وأصبح

لا يعـرف الأصـول

ولج الدكتور عبد الحميد وهو يقول:

— كيف حال السيدة وفاء اليوم؟

— بخير... بنفسك.

أراد شـيخ البلـد أن يصحبـه إلى حجـرة وفـاء، لكـن الطبيـب اسـتوقفه قائـلا:

— أنا أريدك في موضوع آخر.

فدلف به إلى حجرة الجلوس وهو يقول:

— الشاي يا عبد العزيز.

أسند راحته اليسرى على عصا أبنوس وقال باهتمام:

— خير يا دكتور إن شاء الله؟

— الحقيقـة يـا حـاج خضـر، أنـني جئت إليـك اليـوم في موضوع دقيـق يحتـاج إلى حكمتـك الـتي يعرفهـا كل النـاس عنـك.

— خير يا دكتور أقلقتني؟

رشـق عبـد العزيـز الدكتـور عبـد الحميـد بنظـرة ناريـة وهـو يقـدم لـه الشـاي:

— تفضل.

– حط الشاي وأخرج الآن يا عبد العزيز.

حدق شيخ البلد في وجه الطبيب مصغيا:

– الحقيقة أن عبد العزيز جاءني اليوم بالعيادة

– أنا الذي أرسلته يطمئنك على وفاء، هل بدر منه شيء؟

– المهم أنه طلب مني أن أحضر له حقنة مورفين وقال لي إنه يتعاطاها منذ فترة طويلة، وهذه الحقنة تعد من المخدرات الخطرة، وأنا أطلب منك أن تتابعه، وتخلصه منها، حتى لو وصل الأمر أن تعالجه في مركز من المراكز الموجودة في القاهرة التي تعالج الإدمان.

– هل أنت متأكد من هذا الكلام يا دكتور؟

– لقد قلت لك ما حدث منه اليوم، وإنني أنبهك للمرة الثانية أن هذا النوع بالذات يعتبر من الأنواع الخطيرة، اللهم قد بلغت.

تركزت عين شيخ البلد على الدكتور عبد الحميد وظل ساهما لفترة يحدث نفسه، يبقى رجوعه للبيت وقت الفجر سببه المخدرات! أما أنا رجل مغفل صحيح!

– على كل حال لك الشكر يا دكتور.

ظل شيخ البلد واقفا على الباب يشيع الطبيب حتى اختفى عن ناظره.

قامت الدنيا ولم تقعد في دار شيخ البلد فور خروج الدكتور عبد الحميد، أمر شيخ البلد ابنه عبد العزيز أن يصعد خلفه إلى المقعد، ولم يمهله حتى يغلق الباب، وانهال عليه بعصا من الخيزران:

— طول حياتنا مستورين، والآن تريد أن تفضحنا؟! مخدرات؟

هرولت الأم صاعدة السلم الطيني ناحية الصراخ المنبعث من المقعد، ودفعت الباب وغطت عبد العزيز ضناها بجسدها وهي تصرخ:

— الولد سيموت في يدك يا خضر!

— أنتِ التي ستفسدينه بتدليلك الماسخ.

— ماذا فعل لتعاقبه كل هذا العقاب؟

— ابنك يتعاطى مخدرات.

لهث عبد العزيز وهو يقول:

— والله العظيم ما حصل، هذا الرجل كذاب، قد طلبت منه مسكنا للصداع فقط، فلماذا يقول مخدرات؟

قالت الأم معاتبة:

— يا حاج خضر طوِّلْ بالك، ليس عبد العزيز الذي يفعل هذا.

— ولماذا يكذب الرجل علينا؟ ما هي مصلحته في ذلك؟

– ربما كان ساعتها مشغولا، ولم يدقق جيدا فيما يقول عبد العزيز.

وارتفع صوت عبد العزيز متحديا:

– نعم هو لم يفهم كلامي، واسأل عم سعيد فتح الله فقد كان واقفا معنا.

ولم يهدأ لشيخ البلد بال حتى جاءوا له بعم سعيد، ولم يمهله شيخ البلد حتى يستريح:

– هل كان هذا الولد عند الدكتور عبد الحميد اليوم؟

– نعم كان عندنا في العيادة؟ ولكن ماذا جرى؟

– ألم يطلب من الدكتور حقنة مورفين؟

– مورفين؟! لماذا يا حاج؟، إن كل ما طلبه هو بروفين وليس مورفين، للصداع، هل سمعها الدكتور مورفين؟

– إياك أن تتستر عليه يا سعيد.

– ولماذا أتستر عليه؟ أنا لا أريد له الضرر.

تنفس شيخ البلد الصعداء، وقد خارت قواه، ونظر إلى زوجته وهز رأسه:

– اذهبي فاحضري للرجل الواجب، وخذي هذا الولد معك.

_17_

أمسك جمعة عبد العظيم بعضد الدكتور عبد الحميد، وهما يسيران فوق الجسر الترابي الممتد بين الحقول، يسبقهما ظلاهما المحددان بوضوح، فقد كان البدر في تمامه، وجلسا على كوبري أسمنتي صغير، على جانب الجسر، وظلا ينظران إلى الترعة في صمت لا يقطعه إلا نقيق الضفادع، بدا البدر قطعا متقاربة مضيئة على صفحة الماء، متخللا بشعاعه الفضي ظلال عيدان البوص الخضراء القاتمة، كم طلع هذا البدر على أناس من قبل، وكم من حبيب ناجاه وأسرَّ له ما لم يستطع أن يسر به إلى صديق، فهل أنت أيها البدر صديق حقا لكل البشر؟ وهل تحفظ السر رغما عنك لخرسك أم وفاءً؟ كم تنفث في النفس شعاعا حبيبا، ثم استدار وقال محدثا نفسه: ترى ماذا تفعلين الآن يا شمس؟ هل أصدق ما تقوله عيناك؟ وهل تقرئين في عينيَّ ما أقرأه في عينيك؟ أجد في عينيك الحنان وتجدين في عينيَّ الهموم، قطع جمعة الصمت قائلا:

— هل علمت بما حدث لمجدي السروى؟

– ماذا حدث له؟!

– أبت أرض عبد العاطى أن تخرج إلا ثمانية شكاير من البطاطس كان نصيب مجدي منها أربعة، جعلوها لطعامهم.

ثم قال وهو ينفض عن رأسه بعض القش الذى أثارته دوامة رقيقة من الهواء:

– الاستثمار يحتاج إلى ذكاء، فلا يجوز لنا أن نضيع أموالنا ثم نقول: قضاءً وقدر، لابد أن نحسب كل شئ، قبل أن نضع أموالنا التي نحصل عليها بصعوبة بالغة.

وقال ببطء وهو يضغط على الحروف:

– تربية الأغنام استثمار مضمون، فهاهم الرعاة يسرحون بأعداد كبيرة، وبمرور الأيام الواحدة تصبح اثنتين بأضعف الإيمان.

حزن الدكتور عبد الحميد لما أصاب صديقه مجدي، وهب واقفا، قال لجمعة معاتبا:

– لماذا لم تقل لي ذلك قبل المجيء إلى هنا، كنا ذهبنا إليه!

فقال جمعة:

– كنت أظن أنك عرفت، وإنما أردت الآن أن أناقش معك الموضوع!

سار الدكتور عبد الحميد متوجها إلى منزل مجدى، ولاحقته خطوات جمعة وهو يقول:

– لماذا تسرع هكذا؟ هذا الموضوع مر عليه يومان

★★★

كان مجدي السروي يجلس في ذات المكان، يجهز الشاي بنفسه وقد سبقته أمه إلى النوم، قابلهم بابتسامة منكسرة، وظل صامتا وهو يصب الشاي في الأكواب الصغيرة، حاول الدكتور عبد الحميد أن يخفف عنه، فقام وجلس القرفصاء في المكان الذي كان يجلس فيه عبد العاطى، ومد يده قائلا:

– مثل الفل، العِرش أصبح هكذا.

وأشار بيده على ارتفاع نصف متر من الأرض، فضحك مجدي وضحكوا جميعا، وقال مجدي بابتسامة حزينة:

– يا دكتور عبد الحميد أنا لو اشتغلت بياع طواقي؟! ربنا سيخلق الناس من غير رءوس!

فقال الدكتور عبد الحميد متألما:

– يا ساتر يا رب! لماذا كل هذا التشاؤم؟

وعندما حان الانصراف قام مجدي ليوصلهم، فاستأذن الدكتور عبد الحميد من جمعة، فهو يريد أن يقضى وقتا آخر مع مجدي، تركهما جمعة وانصرف وقد أدرك ما قصده الدكتور عبد الحميد.

_18_

الدجاجة تنقر الأرض، وتصوصو حولها الكتاكيت الخضراء، مالت شمس وحملت كتكوتا على راحتها اليسرى، وأحاطته باليمنى، كانت سعيدة، مالت بخدها ليلامس الزغب الناعم، اليوم ميعاد نوبته بالمستشفى، قبلت الكتكوت، ومالت لتضعه على الأرض برفق، فلمحت بطرف عينها أخاها، نهضت بسرعة، فصاحت الإوزة، ورفرفت بجناحيها بشدة، كأنها تنفض عن نفسها أذى أصابها، جذب هشام أخته شمس من ساعدها الأيسر، بيده الغليظة، وراح يهزها هزا عنيفا، ويده تضغط بقوة على ساعدها الرقيق، صرخ في وجهها:

— ألم آمرك من قبل أن لا ترتدى هذه الملابس؟ أَسعيدة أنت وقد حددت تفاصيل جسمكِ؟ أتريدين أن تجعلي حديث الناس عن المرضات حقيقة تمسنا نحن؟ اسمعي الكلام وإلا قتلتك.

خرج والدها بسرعة من حجرة مظلمة، وخلص ساعدها من يده، ودفع هشام من صدره، وصاح فيه:

- تـأدب يـا قليـل الأدب، أختـك تربيتهـا أفضـل منـك يـا فاشـل، أتسـمع كلام العاطلـين مـن أمثالـك؟ اذهـب فابحـث لـك عـن عمـل أفضـل مـن تسـكعك مـع العاطلـين أمثالـك، هـل نسـيت أنـك تعيـش مـن خيرهـا؟

خرج هشام ساخطا وهو يقول:

- دللها اليوم كما شئت، ستجنى غدا ثمار تدليلك.

هدهد الرجل ابنته، ودمعت عيناه وهو يقول لها:

- سـامحيني يـا ابنـتي، فيـوم ولـد هشـام لم أطـق نفسـي مـن السـعادة لأنـه ولـد، ويـوم ولـدتِ اسـودت الدنيـا في وجهـي لأنـك بنـت، وعاملـت أمـك بغلظـة، أتذكرين ذلك يـا فاطمة.

ونظـر إلى فاطمـة زوجتـه، الـتي جلسـت القرفصـاء علـى الأرض، وأسـندت ظهرهـا للحائـط، ويدهـا علـى خدهـا، دون أن تنبـس بكلمـة.

ثـم ضحـك وسـحابة خفيفـة مـن الدمـوع تغشـى عينيـه، وهـو يشـير إلى شمـس أن تنتظـر، وبـدأ يحكـى لهـا قصـة طريفـة حدثـت لـه بالأمـس، يريـد أن يسـرى عنهـا فهـو يكـره أن تقضـى يومـا وليلـة في عملهـا حزينـة، أخبرهـا أنـه كان بالأمـس عنـد الحـاج خليفـة، وكان الشـيخ علـىّ وفرقتـه قـد بـدءوا الحضـرة والذِكـر، اصطفـوا في ثلاثـة صفـوف، وقادهـم الشـيخ علـىّ الـذي وقـف أمامهـم مثـل قائـد الأوركسـترا، يميـل متموجـا

ناحيـة اليمـين وذراعـه اليسـرى بمحـاذاة كتفـه، فيميلـون معـه، ويميـل يسـارا فيميلـون معـه، والغريـب في الأمـر أن الشـيخ علـى بـدأ الحضـرة والذكـر في تـراخ، وكان يشـير بإبهامـه إلى العقـدة الطرفيـة لسـبابته وهـو يتطـوح ببـطء يمينـا ويسـارا، فـكان الخمـول ينتشـر وينخفـض الصـوت وتتباعـد الكلمـات ـ الله... الله... ـ ثـم جـاء أحدهـم فأسـرَّ لـه في أذنـه شـيئا، فاشـتعلت الغرفـة حركـة ونشـاطا ودوى الصـوت مجلجـلا متتابعـا ـ الله الله الله الله ـ وكان يفتـح كفـه عـن آخرهـا ويباعـد مـا بـين أصابعـه وهـو يتطـوح في نشـاط يمينـا ويسـارا، وأثنـاء الأكل سـأل أحـد الضيـوف الشـيخ علـيّ أن يفسـر مـا حـدث، فنظـر حولـه ليطمئـن أن صاحـب الحضـرة غـير موجـود وقـال:

— في الأول أشـرت للفرقـة بأصابعـي إشـارة معناهـا أن الغـداء فـول نابـت، وفـى المـرة الثانيـة لمّـا وشوشـني أحـد أعوانـي أشـرت لهـم بكفـي إشـارة معناهـا أن الغـداء هـبر مـن اللحـم.

كانـت شمـس تضحـك ووالدهـا يمثـل أمامهـا مـا رآه، ثـم أردف قائـلا إنـه أثنـاء الطعـام وضعـوا قصعـة كبـيرة مملـوءة بالفتـة والأرز، وقـد كومـوا اللحـم في ناحيـة واحـدة مـن القصعة، أمـام الشـيخ علـيّ، فقـام أحدهـم وأدار القصعـة حـول نفسـها فجعـل اللحـم أمامـه وهـو يقـول للشـيخ علـى:

— هل تصدق أن الدنيا تدور هكذا يا شيخ على؟

فرد عليه الشيخ على وهو يعيد القصعة إلى وضعها الأول:

– أتريد أن تنظم الكون يا شيخ عباس؟

ثم التفت الشيخ عباس إلى زميل له وقال:

– لنا عندك غداء يا شيخ مرسى، ألم ينجح ابنك في الابتدائية؟

– أستغفر الله العظيم، كيف تستحل مالي الذي حرمه الله يا شيخ عباس، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه؟

– يا آخى اذبح لنا ولو حتى دجاجة ولا جُناح عليك.

كان الجميع يضحكون، وضحكت شمس كما لم تضحك من قبل، قبلت والدها ووالدتها وقالت:

– ربنا يخليكم لي.

– ربنا يبارك لنا فيكِ أنتِ وأخوك محسن.

نادت شمس على محسن وانطلقت يرافقها أخوها، لتلحق بالأتوبيس، أطلق المحصل صفارة للسائق أن يقف عندما لمحهما يجريان من بعيد، أبتلعها الأتوبيس وتحرك بسرعة، مخلفا وراءه سحابة ترابية، امتدت على طول الجسر، ووقف محسن ينظر للأتوبيس حتى اختفى عن ناظره، لا يريد أن يعود للمنزل بسرعة، تمنى لو أن له أصدقاء مخلصين، فيذاكر معهم.

_19_

داعب الربيع ورق أشجار الفيكس الممتد بطول المستشفى على الطريق الرئيسي، وغازل النسيم أغصانا تتدلى من شجرة الصفصاف، على الجانب المقابل للطريق، فتراقصت طربا محدثة حفيفا بديعا ووشوشة رقيقة تبثها للنسيم.

– يا دكتور.....يا دكتور.....يا دكتور!

انتبه الدكتور عبد الحميد على صوت ميرفت وقد وقفت وراءه في حجرة الاستقبال وهو يطل من خلال النافذة، التفت إليها وهز رأسه مستفهما، فتقدمت ناحية النافذة ومطت رأسها محملقة عبر الطريق يمينا ويسارا، بطريقة آلية، كأنها تسأله مستنكرة علام ينظر، فليس في الطريق أحد؟ ووقف ينظر إليها، قال لها وهو يكظم غيظه:

– البنت المحترمة لا تتعامل مع أحد بهذا الأسلوب، فلا تضطريني ثانية...

قاطعته قائلة:

– أهل المتوفى ينتظرون أمام حجرة العمال، ويسألون عن حضرتك، ألن تذهب إليهم؟!

نظر إليها بشراسة، وانصرف وهو يقول: أستغفر الله العظيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

تجلت مروءته في هذه اللحظة، فرغم ضيق صدره وحنقه على هذه المرضة، قابل أهل المتوفى بلطف ولين حين لجأوا إليه متوسلين، طلبوا منه أن يساعدهم في سرعة إنهاء الإجراءات، فإن كرامة الميت دفنه، فتنحى بهم جانبا، وأخذ يحادثهم برهة، ثم عاد مجلجلا بصوته, منكرا على العمال تراخيهم في عملهم، قال لأحدهم:

– يا خليل... هذه الإجراءات لابد أن تنتهي حالا، وسوف أتصل بمفتش الصحة بنفسي.

في أقل من نصف ساعة كانت الإجراءات قد تمت، وأمطره أهل المتوفى دعاء وشكرا، نادت ميرفت من نافذة الاستقبال المطلة على فناء المستشفى:

– حالة يا دكتور عبد الحميد.

كان المريض يشكو من مغص بالبطن، فحصه بدقة كعادته، ثم أمر بإعطائه حقنة باسكوبان بالوريد، كتب في تذكرة العلاج الاقتصادي، مغص كلوى أيسر، وأمره أن يتعاطى الأدوية المدونة بالتذكرة بدقة، ثم يعاود بعد

ثلاثة أيام، أخذ من المريض ثلاثة جنيهات وربع، قيمة التذكرة، ومد يده في جيب بنطلونه، وأخرج كمية من قطع النقود ذات العشرة قروش، رد واحدة منها إلى المريض، حاول المريض أن لا يأخذها ولكنه أصر، كان بذلك يخالف جميع الأطباء، الذين يكتبون العلاج للمرضى المترددين على استقبال المستشفى على قطع من الورق، مضيعين بذلك حقوق المستشفى، ولم يكن يظهر في يوم نوبته إلا وفى يده هذا الدفتر.

★★★

بعد أن هدأت المستشفى، وقل المترددون على الاستقبال، نادى أحد العمال، ودس في يده ورقة مالية فئة العشرة جنيهات، وقال له بلهجة

ودودة:

— يا خليل، خذوا عشاءكم.

وأخبر ميرفت بتحفظ بأنه سيكون موجودا في قسم الجراحة، وطلب من العامل أن يناديه إذا احتاجوه في الاستقبال، وان لا يتعب نفسه بالصعود إلى الدور الثالث، بل يناديه فقط من الفناء، فالنافذة ستكون مفتوحة.

قالت ميرفت وهى تطل من نافذة الاستقبال:

— نوبتجية سعيدة يا دكتور.

★★★

في قسم الجراحة استقبلته شمس بوجهها الصبوح، كانت في انتظاره, ربما كانت ترقب مجيئه من النافذة، ألقى عليها التحية ودخل حجرة الأطباء، تمطى على كرسيه خلف المكتب، وجه بصره نحو سقف الحجرة، غريبة هذه الحياة، كم هي مليئة بالمتناقضات، ذئاب تتربص، تنهش اللحوم، وقطط وديعة، تتمسح باليد الحنونة لعلها تربت عليها بكلمة طيبة، سبحان الله، ومد يده فتناول كتابا، فتحه، فإذا بطرقات خفيفة على الباب:

— تفضل!

أطلت شمس من وراء الباب كما يطل البدر من وراء سحابة، قال:

— لماذا كل هذا التعب يا ست البنات؟

قدمت له شمس كوب الشاي وهى تمسح وجهه بابتسامة رقيقة، سألها باهتمام عن حالة والدتها الصحية، وعن والدها:

— بخير، الحمد لله.

سألها عن أخيها هشام، كيف يعاملها الآن، جلست بعد أن أشار إليها وقالت والابتسامة تتلاشى تدريجيا:

— لا داع لذكر سيرة هشام الآن يا دكتور، أتريد أن تعرف آخر ما فعله؟ هذا هو...

مـدت يدهـا ورفعـت كـم البلـوزة، فـإذا بكدمـة زرقـاء في منتصـف سـاعدها الأيسـر، قالـت:

— عملـت بنصيحـة حضرتـك، لكـن لا فائـدة، ليـت الأمـور وقفـت عنـد الضـرب فقـط، إنـه لا يعـود إلى المنـزل إلا وقـت الفجـر، وأنـا أخشـى عليـه أن يكـون ممـن يتعاطـون المخـدرات.

— مخدرات؟ لا يأخذك تفكيرك إلى هذا الحد.

بـدت عليـه علامـات التأثـر، وأراد أن يقـول لهـا إنهـا جميلة ومؤدبـة ومهذبـة فلتكـن أيضـا صبـورة، وأراد أن يقـول لهـا أيضـا إنـه سـوف يعوضهـا عـن كل لحظـة معانـاة عاشـتها، ولكنـه قبـل أن يبـدأ كلامـه، دفعـت ميرفـت البـاب المـوارب وفتحتـه علـى مصراعـه، فاستشـاط الدكتـور عبـد الحميـد غضبـا، وقبـل أن ينطـق نظـرت إليـه بصلابـة قائلـة:

— حالة يا سعادة الباشا.

فثـار عليهـا ثـورة عارمـة، وهددهـا بالنقـل مـن المستشـفى إذا لم تلتـزم بالأسـلوب المهـذب في تعاملهـا مـع الآخريـن، ثـم عنفها علـى تركهـا للمريـض، بل لتركها حجـرة الاسـتقبال بصفة عامة.

— أصل الحالة مستعجلة يا باشا.

كانـت تحدثـه وهـى تنظـر بخبـث إلى شمـس الـتي هبـت واقفـة مـن المفاجـأة.

وفي حجرة الاستقبال، وجد المريض يجلس وقد أحنى ظهره للأمام، وهو يأخذ نفسه بصعوبة، محدثا أزيزا مسموعا، وبدت زرقة واضحة على شفتيه، كان يجب عليها أن لا تتركه، وأن تفتح له أسطوانة الأكسجين في الحال، ثم ترسل العامل بعد ذلك لينادي، أستغفر الله العظيم، قام بسرعة بتوصيل أسطوانة الأكسجين لجهاز النيبوليزر، ووضع الماسك على فم المريض وأنفه، فاستنشق المريض خليطا من الأكسجين والفنتولين، وأثناء ذلك قام بإعطائه حقنة مينوفللين بالوريد ببطء شديد، كرر جلسة الفنتولين بعد ربع ساعة، كان المريض يستنشق البخار المتصاعد بنفس أهدأ منه في بادئ الأمر، كرر الدكتور عبد الحميد جلسة الفنتولين للمرة الثالثة بعد ربع ساعة أخرى، شعر المريض بالتحسن، فرفع عنه الماصك، دعا له المريض، حرر له تذكرة دخول قسم الباطنة لاستكمال العلاج بتشخيص أزمة ربوية حادة.

★★★

يعرف الدكتور عبد الحميد بوضوح السبب الذي جعل هذه المرضة تعامله بهذه الطريقة الشاذة، إنه يتذكر جيدا ذلك اليوم، فلم يكد يمر عليه أسبوع واحد.

حلت علامات الغيظ محل الابتسامة المعتادة، واحتد بشدة، وقطب جبينه، وتطاير شرر الغضب من عينيه، عندما علم أن بعض الحقن والآلات والأجهزة الطبية قد

اختفت من استقبال المستشفى، فقد لاحظ أن هذه الظاهرة قد تكررت في أيام نوباته بالمستشفى، هو بالذات، ولم يكن ليجد مبررا لذلك، جمع كل العمال والمرضات بالاستقبال، وجعل يذكرهم بأن الله لا يغفل، وأنه سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل، ولم يقتصر على الوعظ ومحاولة إيقاظ الضمائر الغافلة، بل تجاوز ذلك بالتوعد بتقديم مذكرة للسيد المدير، عن كل سرقة أو مخالفة تحدث يوم نوبته، وكتب بالفعل كثيرا من المذكرات، ولكنه كان يتراجع في كل مرة عن تقديمها للمدير، مكتفيا بأخذ العهود عليهم بالحفاظ على حقوق المرضى، ولكن في ذلك اليوم الذي لن تنساه ميرفت أبدا، لم يتراجع عن تقديم المذكرة للمدير، طالما الأمر وصل إلى هذه الدرجة، فاختفاء جهاز شفاط كهربائي من الاستقبال أمر ليس بالهين، ولابد أن يكون هناك رادع عقابي، طالما العظة لا تؤتى ثمارها مع هذه النوعية من الناس، فكان الجزاء رادعا، خصم ثمن الجهاز من راتبها.

_20_

كانا يجلسان صامتين بعد أن تكلما في كل شئ، فلم يجدا ما يقولانه، ساعة أن طرقت الباب يد صغيرة، وظهرت فتاة تلهث وهى تقول لجمعة عبد العظيم:

- يريدونك بالمنزل.
- قولي لهم إني أكلت مع الدكتور عبد الحميد.
- لأ... ليس من أجل الغداء، عنزاتك الموجودة عند عبد الشافي أكلت عِرش مسموم بعضها مات والبعض ذبح.

نظر الدكتور عبد الحميد لجمعة فوجد شفتيه قد ابيضتا، وعينه قد اتسعت، وهب خارجا في صمت دون أن يستأذن.

★★★

في المساء، بينما كان الدكتور عبد الحميد يجلس مؤنبا نفسه، أنه لم يذهب مع صديقه ليواسيه، دخل عليه جمعة وهو يضحك بأعلى صوته، وكأن الضحكة العالية غطاء سميك يحاول به جاهدا أن يخفى آلاما فادحة تعترك بداخله قال:

– العنـزات كلهـا ماتـت، إلا واحدة لحقوها بالسِّـكين، يبدو أن مـال الجيـش حـرام، كل مـا ادخرته من مرتـبي كضابط ضاع.

ثـم راح يقـص عليـه مـا حـدث، وأنـه خـرج مـن عنـده قاصـدا عبـد الشـافي هـذا المهمـل، ليتشـاجر معـه، وبينمـا هـو في الطريـق، لمـح علـى امتـداد بصـره رجـلا مقبـلا في اتجاهـه، يركـب حمـارا وقـد طـرح أمامـه علـى الحمـار جلبابـا أسـود كبـيرا، يتـدلى علـى جانـبي الحمـار، لم يكـن يتبـين هـذا الرجـل، وعندمـا اقـترب الرجـل عـرف أنـه عبـد الشـافي وأن مـا أمامـه ليـس جلبابـا كمـا تخيـل وإنمـا عنـزات ميتـة، فقـال لـه:

– إلى أين؟!

فرد الرجل :

– رائح عند عمك عبد العظيم.

كان عبـد الشـافي لا يعـرف جمعـة، بـل لا يعـرف معظـم الشـباب فـى قريتـه، وكيـف يعرفهـم وهـو يقضـى اليـوم كلـه متنقـلا بـين الحقـول، لا يعـود إلا لينـام، كان يعـرف الآبـاء، فوالـد جمعـة هـو الـذي شـاركه، وعندمـا انهـال عليـه جمعـة يشـتمه ويوبخـه ويتوعـده، اسـتمر الرجـل في طريقـه إلى منـزل عبـد العظيـم، ليريـه بعينـه أن العنـزات ماتـت حتـى لا يظـن به سـوءا، وكان يتعجـب لهـذا الشـاب الـذي يشـتمه بـلا سـبب، وهـو يقـول: مـاذا جـرى للنـاس؟

بعد أن قص جمعة ما حدث على الدكتور عبد الحميد، عاوده الحزن فشرد بذهنه، وغرق في بحر من الصمت، لم ينجه منه إلا صوت إبراهيم الجزار، الذي دخل العيادة فملأها ضجيجا وضحكات، وهو يضغط بقطعة من القماش يده اليسرى، وقد غطاها الدم، حاول جمعة الاستئذان، لكن إبراهيم الجزار أقسم ألا يخرج قائلا:

- خليك...والله ما انت ماش... فقط غرزتان واترككم تكملون حديثكم ، أدبح لا مؤاخذة البهائم كل خميس لا يحدث لي شيئ، إلا هذا الخميس جاءت لي امرأة أدبح لها فرخا، قالت لي خلى الرقبة كلها مع الراس حتى تصبح منابا يتوزع على عيل من العيال.

فضحك جمعة ومن حضر مع الجزار بصوت عال وقال أحدهم:

- تلاقيك تأثرت بكلامها وكنت ناوي تعطيها أصبع من أصابعك السمينة تلك فهي تنفع كمناب لها هى.

-21-

رشف مدحت آخر رشفة في كوب الشاي، مص التفل المنزلق على جدار الكوب حتى حافته، لم ينزل التفل إلى القاع عندما اعتدل الكوب في يده، وضعه في الصينية بعنف، فأحدث صوتا مزعجا:

- لماذا تدافعون عنه هكذا، أنتم مغترون بطريقته الناعمة مع الناس، أو ربما يكون لكم مصالح عنده.

وضحك ضحكة ساخرة.

- يا مدحت أنت متأثر بما حدث لميرفت، لكن الرجل معه حق، أتريد منه أن يصمت بعد ضياع جهاز الشفاط في نوبتجيته؟

كانت منيرة ترد عليه بهدوء، فاحتقن وجه مدح، وانتفخت وجنتاه، وبرز عرقان غليظان على جانبي رقبته:

- الظاهر أن المصالح هي التي تحكم الناس هذه الأيام، لا الزمالة تهم ولا غيرها، لكنني أعرفكن أن التي تقع منكن لن تجد من يسمى عليها، وللعلم لن يمر هذا

الأمـر ببسـاطة علـى المدعـو عبـد الحميـد.

خـرج مدحـت مـن حجـرة التمريـض سـاخطا، مطـت كل ممرضـة شـفتها السـفلي لزميلتهـا.

— الرجـل مـؤدب، وأخلاقـه رفيعـة، ويتعامـل معنـا بـالأدب، فلمـاذا نعاديـه؟ خـذي حـذرك أنـتِ وهـى، مدحـت يريـد أن يورطنـا معـه، ثـم إن ميرفـت مـن الممكـن أن تكـون هـي الـتي فعلـت ذلـك، نعـم ممكـن تعمـل هـذا وأكثـر مـن هـذا.

— كلامك صحيح يا وفاء (واللي يشيل قربة مخرومة...)

عنـد خـروج مدحـت مـن البـاب، أخـبره الولـد السـقط أن خالـه سـعيد ينتظـره بالخـارج، لم يـذق مدحـت طعـم النـوم في الليلـة الفائتـة، وقضـى الليـل كلـه يرسـم الخطـط مـع ميرفـت، لا يقطعـان الحديـث إلا إذا دخـل عليهمـا أحـد.

علـى البـاب الخارجـي نقـل بصـره بـين الموجوديـن لم يعثـر علـى خالـه، وبينمـا كان يسـتدير عائـدا، ليسـأل الولـد السـقط، عـن مـكان خالـه، رآه علـى الجانـب الآخـر، عـبر الطريـق إليـه ببـطء غـير عابـئ بكلاكسـات السـيارات، وأثنـاء دخـول الدكتـور عبـد الحميـد المستشـفى، لمـح عاملـه سـعيد يسـير متأبطـا مدحت الممـرض، ابـن أختـه، فبـدأ يومـه وفـى رأسـه علامـة اسـتفهام.

★★★

بـدأ المريـض شـكواه في عيـادة الباطنـة، والدكتـور عـلاء يمسـك بيـده القلـم وهـو ينظـر إليـه مـن فـوق عدسـات النظـارة:

- إمبـارح الصبـح، لأ.. الضحويـة، كنـت رايـح الغيـط، حتـى أرى الولـد محمـد ابـني مـاذا فعـل مـع جارنـا في الحـد الـذي بيننـا وبينـه؟ تخيـل مـاذا جـرى؟ قابلـني أبـو سـويلم قبـل الترعـة بمسـافة صغـيرة، مسـافة تقـدر تقـول قصبـة ونصـف، قلـت لـه أنـت رايـح فـين يـا راجـل،...

قاطعه الدكتور علاء:

- يـا حـاج... يـا حـاج قُـل لـي ممـا تشـكو، ألسـت مريضـا، شـكواك فقـط؟

- اشـتر مـني يـا دكتـور، اسمـع، مـا هـو أنـا جـاي لـك في الـكلام أهـو، قمـت لمـا قلـت لـه إنـت رايـح فـين يـا راجل، قـال مـش رايـح لا هنـا ولا هناك، وصمم ورأسـه كألف سـيف يأخذنـي معـه أشـرب كـوب شـاي، قمنـا جمعنـا خشـب مكسـر، وأشـعلنا النـار، نـار قويـة في حفـرة مـن الأرض،..

كان الدكتـور يعـض علـى أسـنانه مـن الغيـظ، فمـازال عـدد كبـير مـن المرضـى ينتظـر بالخـارج.

- يـا حـاج مـن فضلـك احكـي لـي عمـا يوجعـك فقـط.

- قمـت لمـا حطينـا بـراد الشـاي علـى النـار، جـاب لـي لقمـة فطـيرة وحتـة جبنـة حادقـة، ربـك والحـق كان طعمهـا...

لم يستطع الرجل أن يكمل شكواه، فقد دس الطبيب فى فمه الترمومتر الطبي، وأمره أن يقبض عليه بشفتيه لا بأسنانه حتى لا يظنه لقمة فطيرة فيقضمه.

قص الدكتور علاء على زملائه، الذين حضروا إليه بعد أن فرغت العيادات من المرضى، قصة هذا المريض، فاهتزت صدورهم من الضحك، قال أحدهم إنه كان يرفع ملابس أحد المرضى من الخلف، ليفحص ظهره، فرأى البراغيث تتقافز فى كل اتجاه، فأطبق عليها بالملابس ثانية، وأخذ يرفعها ببطء وهو يبرمها للداخل، حتى لا يفقد الرجل برغوثا من براغيثه، فانطلقت الضحكات عالية، وقص عليهم الدكتور حسن مرعى نكتة المريض الذي ذهب لأخصائي الجراحة، يشكو من رجله اليمنى، فأخبره الطبيب أن البتر ضروري وعاجل، فتركه المريض وذهب لجراح آخر، فأصر على البتر، يئس الرجل وأصبح لا يرى إلا سوادا، ثم ذهب في محاولة يائسة إلى أكبر أخصائي باطنة في المنطقة عمرا وخبرة، وبعد الفحص أمسك الطبيب قلما وراح يكتب في تذكرة العلاج، سأل الرجل الطبيب:

— أليست في حاجة إلى البتر يا دكتور؟

— لماذا البتر يا ابنى؟

فانشرح قلب الرجل، وتراقصت الدنيا في عينيه من جديد، وأصغى إلى الطبيب الذي استطرد قائلا:

- فقط استمر على هذا العلاج لمدة شهر!

فسأل الرجل بابتسامة عريضة:

- وماذا بعد الشهر يا دكتور؟

رد الدكتور بهدوء:

- ستسقط وحدها إن شاء الله!

فتعالت الضحكات تملأ أرجاء الحجرة، وجعلوا يلحون على الدكتور أحمد الكيلانى أن يقص عليهم مآثره في فترة الامتياز، قال مستسلما لإلحاحهم:

- كنا متشوقين أنا وزميلي محمود علام لافتتاح عيادة خاصة، كان لديه المكان في قريته، وبعد أسبوع من الافتتاح تفجرت بداخلنا السعادة حين دخل علينا العامل يزف إلينا مجيء حالة، استقبلنا السيدة مرحبين بجدية، فبسطت أمامنا لفافة، نظرنا فإذا بوليد عمره أسبوع واحد، كان يبدو كرجل عجوز، كز على فكيه فبدا كما لو كان يضحك ضحكة صفراء، قلنا سبحان الله لما رأينا قدرة هذا الطفل الخارقة، فهو يستطيع أن يفعل مثلما يفعل الكبار، المهم أننا لم نجد به علة وكتبنا بتذكرة العلاج نقط فيتامينات، وبعد أسبوع دخل علينا العامل بوجهه الشؤم ليخبرنا أن الطفل الذي كشفنا عليه الأسبوع الماضي مات بمستشفى

الحميـات، وأن تشـخيص مرضـه كان تيتانـوس سُـرِّى، فصـاح الدكتـور محمـود في العامـل يأمـره أن يخـرج لعمـل كوبـين مـن الشـاي، ومـا إن خـرج حتـى اندفعنـا نقـرأ في كتـاب الحميـات عـن موضـوع التيتانـوس السـري، وكلمـا قرأنـا جملـة نظـر أحدنـا إلى الآخـر وقـال: بالضبـط كل هذه الأعراض كانت موجودة.

واسـتطرد يحدثهـم عـن الحالـة الثانيـة، وهـى زوجـة ابـن عم الدكتـور محمـود، كانـت حامـلا في الشـهر الأخـير، وأقسـمت أن لا تكـون ولادتهـا إلا عندهمـا، سـألاها عـن تاريـخ أول يـوم مـن آخـر دورة شـهرية، وفـى اليـوم التالـي سـألا طبيـب النسـاء عـن طريقـة حسـاب التاريـخ المتوقـع

للـولادة، ثـم أضافـا إلى التاريـخ السـابق تسـعة أشـهر وسـبعة أيـام، وقبـل ميعـاد ولادتهـا بأسـبوعين أذاعـا في القريـة خـبرا أنهمـا مدعـوان لحضـور مؤتمـر طـبي لمـدة شـهر، ولم يغـادرا المستشـفى إلا وقـد علمـا أنهـا ولـدت.

ظـل الدكتـور عـلاء وباقـي الأطبـاء يضربـون كفـا بكـف وهـم يتمايلـون مـن الضحـك، ودق البـاب مرتـين، ثـم دخلـت الممرضـة، تبعتهـا فتـاة في الثلاثـين، شـاحبة اللـون، وكان الجميـع قـد عـادت إليهـم علامـات الجـد والهيبـة في لمـح البصـر، قـام الدكتـور عـلاء بفحـص المريضـة:

– طبعا لا إحراج، فكلهم أطباء وأنتِ تعلمين أن الأطباء أناس محترمون وعندهم أمانة!

ونظر إلى زملائه بطرف عينه، فوجدهم يبتسمون، وبعد الإطلاع على التحاليل التي أحضرتها المريضة معها، التفت إلى زملائه:

– حالة ليوكيميا.

نظرت إليهم المريضة، تستطلع وجوههم، لا تعرف معنى كلمة ليوكيميا، فماذا لو علمت أنها تعنى سرطان الدم.

كانت تنظر إلى طبيب التخدير عندما بدأ كلامه مع الدكتور علاء يذّكره:

– مثل حالة سعدية التي كانت محجوزة الأسبوع الماضي الله يرحمها.

امتقع وجه المريضة من الصدمة، واغرورقت عيناها بالدموع، وحاول أحدهم أن يتدارك هذه الفاجعة فقال:

– لكن حالة هذه المريضة مازالت في مراحلها الأولى، وإن شاء الله الشفاء يكون سريعا.

تذكر الدكتور حسن مرعى ميعادا غاية في الضرورة وغاية في السرية، استأذن وخرج.

_22_

اتسم يوم الثلاثاء بسمات خاصة، ليس مبعثها حضور المدير إلى المستشفى بعد صلاة العشاء مباشرة، على غير عادته، وليس بالجلسة التي عقدها مع الأطباء الأخصائيين، والأطباء المقيمين وأطباء الامتياز، وإنما بالتناغم الذي حدث في ذات الوقت بين جلسة المدير من ناحية، وجلسة مدحت الممرض وجلسة ميرفت من ناحية أخرى، كان محور الحديث في الجلسات الثلاث واحدا، يدور حول شخصية واحدة، هي شخصية الدكتور عبد الحميد.

حين بدأ المدير محدثا الأطباء في مكتبه ـ وهو ينقل بصره من طبيب لآخر ـ عن نظريته ونظرته السديدتين عن معرفة الشخصيات والأشخاص، بدأ يقول بصوت خفيض، وبأفكار مرتبة، وهو يتناول فنجان القهوة من يد العامل، ويطلب للأطباء الشاي:

— أنا كما تعلمون أعمل في سلك الإدارة منذ أكثر من ثماني سنوات، خلالها لم يخب حدسي في الشخصيات التي تعاملت معها سوى مرة واحدة، فأنا أجزم أن

الإنسان الهادئ رؤيته للحياة وتعامله مع المواقف أوضح وأصوب من غيره، لأنه بهدوئه يعطى نفسه الفرصة لفهم المواقف بل الحياة فهما سليما،...

كان مدحت يجلس مع بعض المرضات والمرضين وقليل من العمال، يحدثهم باهتمام، نزع السيجارة من زاوية فمه اليمنى قابضا عليها بين إصبعيه:

— أنا نظريتي في الناس لم تخب أبدا، ولم أخف طيلة عمري إلا من الهادىء، الذي تحبه كل الناس!

ثم نظر إليهم وسأل:

— من منكم يقدر يقول لي من الذي يستطيع أن يجعل الناس كلها تحبه؟

نظر بعضهم إلى بعض ثم إليه دون أن يجيبوا، قال:

— الإنسان الماكر هو الوحيد الذي يستطيع ذلك! يكلم هذا بلون، ويكلم هذا بلون، يعطى كل واحد ما يريده، ليأخذ في النهاية ما يسعى إليه.

استطرد المدير حديثه قائلا:

— الدكتور عبد الحميد مثلا إنسان خيِّر، وأنا شخصيا معجب بأمانته وأخلاقه!

لم يلحظ المدير أحد أطباء الامتياز، وهو يغمز بعينه لزميله عندما ورد اسم الدكتور عبد الحميد، وهمس له:

— الظاهر أنه آن الأوان ليخيب حدسه للمرة الثانية.

قال أحد الأطباء موجها كلامه للمدير:

— أنا عارف قصد سيادتك ! طبعا ما فعله مع المريض فريد شرف أليس كذلك؟

— وكيف علمت بذلك؟!

— هذه الحالة يا سعادة المدير لها تفسير آخر يسئ للدكتور عبد الحميد،...

فقاطعه المدير قائلا:

— كيف؟!

قالها المدير وهو يضع الفنجان في طبق صيني صغير وهو يتلمظ، ضغط على عينيه بإصبعيه من تحت النظارة، وراح يشرح والجميع ينظرون إليه بعيون مفتوحة عن آخرها:

— الدكتور عبد الحميد كان غير موجود بالبلد، فذهب المريض لطبيب الوحدة الصحية، فحوَّله إلى أخصائي جراحة عامة، فعمل له عملية استكشاف، وباع المسكين عنزتين، رأس ماله, ثم ردهما الدكتور عبد الحميد إليه وأعطاه مائة جنيه. ماذا في ذلك يسئ إليه؟!

وهم الطبيب أن يقول شيئا، لكن جرس التليفون رن فتناول المدير السماعة وتحدث برموز غير مفهومة قائلا: نعم.... طبعا.... حالا.

ثم انصرف معتذرا عن عدم إكمال الحديث معهم.

★★★

بعد لحظة من الصمت، أكمل مدحت حديثه، وقد بث حوله سحابة كثيفة من الدخان:

— المستشفى والحمد لله.. عدد الناس الماكرين فيها معدود، لكن فيها واحد بمائة، أنتم تعرفونه جيدا، الدكتور عبد الحميد.

حدثت همهمة عالية فارتفع صوت مدحت ليواصل كلامه قائلا:

— نعم الدكتور عبد الحميد، ممكن بعضكم يستغرب هذا الكلام، ويقول إن الرجل يشترى الأدوية غير المتوفرة للناس المساكين من ماله الخاص، هل سأل أحدكم نفسه مَنْ من المساكين يشترى لهم هذه الأدوية؟!

لم يرد أحد، فقال:

— طبعا لمرضى معينين، هو عارف أنهم سيكونون وسائل دعاية له!، ألم يتطرق لذهن أحدكم أن قسم الباطنة به مائة مريض فقير مرمى لا يسأل عنهم أحد، حتى المال

الـذي ينثـره هنـا وهنـاك أنتـم تعرفون أنـه لمصـالح، طبعا هذا يبعـث لـه حالـة، وهـذا يسـحب لـه حالـة مـن المستشـفى!

ثم اعتدل وقال:

— وارجـع وأقـول لكـم إن اتهامـه لميرفـت يمسـنا كلنـا، ولابـد يكـون لنـا موقـف!

وابتسم وقال:

— على فكرة! لكم عندي خبر مثل الصاعقة،...

تفحـص مدحـت وجـوه الملتفـين حولـه، يستكشـف مـدى اسـتعدادهم لسـماع الخـبر، فتـح فمـه للحديـث فبـدت أسـنانه الصفـراء المتآكلـة:

— ألم تلاحظ واحدة منكن على شمس شيئا؟

— شيء مثل ماذا؟

— مثل ماذا؟!

— ماذا تقصد؟

— ماذا أقصد؟!

ثم التفت إلى سهيلة في حركة مفاجئة:

— كنـتُ أحسـبك ذكيـة يـا سـهيلة! ألم تلحظـي شـيئا نهائيـا علـى شمـس؟

– قل وخلصنا يا مدحت، لا يا سيدي... أنا لم ألحظ شيئا نهائيا على شمس.

– ألم يلحظ أحد أن بطنها كبرت كثيرا عن الأول؟

– ماذا تقصد؟

– ماذا أقصد؟!... الموضوع ظاهر كالشمس، يبدو أن الناس نائمة على آذانها!

التفتت كل واحدة إلى الأخرى، وعيناها مفتوحتان عن آخرها، ونظر أحد العمال إليه وقد فغر فاه من الدهشة، أتصل به الوقاحة إلى هذه الدرجة؟، إنه وصل إلى درجة لا يجب السكوت عليها، ولكن ماذا نفعل ونحن جميعا نفهم ما يرمى إليه؟، يريد أن يطأ زميلته بقدمه ليضرب بيده الدكتور عبد الحميد، نعم هو يقصد ذلك، هل أخبر الدكتور عبد الحميد بما يجرى؟ طبعا من الخطأ أن أخوض في مثل هذا الحديث معه، كل المرضات الجالسات حولي يعلمن جيدا أن مدحت كذاب، ولكن يتظاهر البعض بتصديقه مخافة منه لا اقتناعا بما يقو، فهم يعرفون مكائده، قطع صوت مدحت تفكير العامل بقوله:

– اعتبروني كذابا... واسألوا الدكتور علاء، هو كشف عليها مرة، وطلب منها تعرض نفسها على طبيب نساء، وهى منتظرة نوبتجية الدكتور عبد الغنى

أخصائي النساء، سيكون نوبتجيا معها بعد ثلاثة أيام، يعني يوم الخميس، وإن طلعت أنا كذاب...

وضرب بكفه على صدره:

– يصبح من حقكم أن تفعلوا بي ما شئتم، يعني بالعربي هي حامل، وأنتم وحدكم تستطيعون أن تخمنوا ممن؟

نعم خبر مثل الصاعقة، يمكن لمدحت أن يكذب، ويوقع بين الناس، ولكن أن يقول كلاما مثل هذا، لا يستطيع أن يقوله إلا إذا كان متأكدا نعم إن صدق مدحت سيكون أول المتهمين في نظرنا نحن هو الدكتور عبد الحميد، لا لأنه سيئ، ولكن لأننا لا نجد هذه البنت تجلس مع غيره، نجدها تجلس معه في حجرة الأطباء في قسم الجراحة، وفي أي وقت بعد العشاء، في منتصف الليل، بل وبعد منتصف الليل، نحن نثق به ولم نفكر لحظة واحدة أنه من الممكن أن يفعل مثل هذا، لم يرتبك مرة واحدة في أي وقت ندخل عليه المكتب ونجدها تجلس أمامه، هز العامل عبد الستار رأسه مستنكرا وهو يخرج من الحجرة، تخرج خلفه الممرضات وكل واحدة تتأبط زميلتها، وقد ألجمتهم كلمات مدحت الشيطان.

وفي ذات الوقت أيضا كانت تجلس ميرفت في قسم النساء مع زميلاتها قالت لهن بعد أن بدأت الحديث عن العمل في المستشفى، إن العمل قل كثيرا عن ذي قبل، وضربت مثلا

بقسم الجراحة، فالبنات يجلسن طوال اليوم، بلا عمل، حتى بدت عليهن علامات السمنة، منى ووفاء وليلى، لكن السمنة بدت أكثر على شمس، وسألت فجأة:

— ألستن تلاحظن معي أن السمنة قد زادت عليها بصورة واضحة، انظرن إلى بطنها فقد برزت وأصبحت ظاهرة من الفستان، ركزن بصركن عليها فقط منذ اليوم.

ثم سألتهن عن ميعاد نوبتجية الدكتور عبد الغنى، فأخبرتها إحداهن أن نوبتجيته ستوافق الخميس القادم، فالتفتت إليهن تسأل:

— هي شمس عندها مشكلة؟

— مشكلة؟!

— قد سمعت لست أذكر ممن أن الدكتور عبد الغنى سيفحصها يوم نوبتجيته، أي يوم الخميس كما قالت هدى.

— لكنه طبيب نساء وهى مازالت بنتا!

— وما يدريني أنا؟!

وبعد لحظة من الصمت، عادت لتكمل حديثها:

— شمس بنت غلبانة قوي وعلى نياتها.

ثم نظرت إلى زميلاتها وقالت:

– وتحب الأطفال جدا، ساعة ما تشوف أولاد الدكتور عبد الحميد تبقى محتارة ماذا تفعل من أجلهم.

فعقبت إحدى زميلاتها وهى تضحك:

– والله أنِت داهية يا ميرفت، ترمين البذرة وتتركينها تنبت وتبقى شجرة كبيرة، وتأكلين أنتِ على الجاهز.

الحقيقة أن ممرضات قسم النسا لم يتحدثن في تلك الليلة عن موضوع آخر سوى موضوع شمس.

_23_

وثبت شمس من فوق السرير، فسقطت قدماها معا على الأرض، كانت تغمرها السعادة، دارت حول نفسها وهى واقفة بسرعة، ثم وثبت مرة أخرى فوق السرير واستلقت بظهرها عليه وهى تنظر لأعلى، أغمضت عينيها فاستشعرت أن السرير بساط من الريح يحملها ويحلق بها في الفضاء الواسع الجميل، فاليوم من الأيام التي يجب أن يسجلها التاريخ.

كانت منى تجلس على حافة السرير المقابل، ويداها على خديها، مرتكزة بكوعيها على ركبتيها، تحدق في صمت، لا تبدو عليها سعادة، لماذا هي سعيدة، نعم بطنها برزت للأمام، ترى ما بها، أخبرها طبيب الباطنة أنه أحس شيئا، ولكنه لم يستطع تحديده، طلب منها أن تعرض نفسها على طبيب النسا، لماذا؟ بل لماذا هي سعيدة اليوم؟ البنات والعمال يتكلمون عنها، هي لا تدرى شيئا مما يحدث حولها، قالت لها:

— لماذا تبدين سعيدة هكذا اليوم؟

– لست وحدي السعيدة، بل العالم كله سعيد، انظري للعصافير كيف تغنى؟ وانظري للشجر كيف يرقص؟

– كانت تشرئب بعنقها، تنظر من النافذة وهى جالسة فوق السرير.

– وماذا يجعل العصافير تغنى والشجر يرقص؟!

– الدكتور عبد الحميد... الدكتور عبد الحميد.

ثم أسبلت عينيها وهزت رأسها حالمة وقالت:

– أتعلمين ماذا قال لي اليوم؟ قال لي إنني جميلة جدا، وقال لي إنه يفكر في كثيرا، كانت عيناه جميلتين وهو يتحدث.

فجأة جذبتها منى من الحلم بقسوة قائلة:

– هل الدورة الشهرية منتظمة معكِ؟

– دورة ماذا؟!

– العادة! العادة الشهرية! ألا تفهمين؟

فبهتت شمس وشردت بذهنها، وأطرقت قليلا، ثم أجابت وهى مرتبكة.

– طبعا منتظمة، لماذا تسألين هذا السؤال؟

– آخر مرة منذ متى؟

– منذ... اسبوع.

– هل أنتِ متأكدة؟

– ضروري متأكدة! لكن لماذا؟!

– لا، مجرد سؤال.

كان رد منى عصبيا، فقد نهضت ووقفت ساهمة للحظة، وقالت في نفسها: هل هي صادقة حقا، إن كانت صادقة فلماذا بدا عليها الارتباك، وما هذا الذي يجعل بطنها بارزة إلى هذه الدرجة، يا رب استرها. حاولت منى أن تخرج من تفكيرها، لم تستطع، فانطلقت خارجة من الحجرة وهى مكتئبة.

وتلاطمت فى ذهن شمس الأفكار: أسئلة غريبة تسألها لي منى، لماذا؟ ألم أبدُ ناضجة أمامها؟! أنا مثلهن جميعا، صدري مثل صدرهن، قامتي ممشوقة كما يقولون، هل عدم مجيء الدورة يعنى أنني غير ناضجة؟! نعلم أن العادة الشهرية دليل الأنوثة والخصوبة وصمتت برهة، ألهذا نصحني الدكتور علاء بالعرض على طبيب نسا؟ ربما!

★★★

ثبتت أعين المرضات والعمال وبعض أطباء الامتياز على الدكتور عبد الحميد، كأنه جهة الشمال وكأن أعينهم البوصلة المغناطيسية، أينما اتجه توجهت أبصارهم، إن سار

للقسم، يقولون ذاهب إليها، وإن جلس في حجرة الجراحة، يقولون يتحين الفرصة ليمتص من فريسته الرحيق، إن فرح يقولون، وإن حزن يقولون، لم يشعر هو بهذه الأعين التي تلاحقه، دقات خفيفة على الباب:

– تفضل.

دخلت منى وهو يجلس على مكتبه في حجرة الأطباء بالقسم، كانت تبدو غير سعيدة:

– تفضلي يا منى... مالك؟!.

– أريد أن أتحدث معك في موضوع حساس.

– تفضلي.

– أصل... أصل...

– قولي يا منى، أنا أفهم وأقدر.

– البنات في المستشفى كلها يتحدثن عن حضرتك وعن شمس وهى غير مدركة لما يحدث، وبالطبع هذا لا يرضى حضرتك، يقلن إن هناك علاقة بينك وبينها.

لم تتغير قسمات وجهه وهو يقول:

– بالطبع هذا الكلام يرضيني، لماذا قلتِ لا يرضيني، وأما عن وجود علاقة بيني وبينها، فبالفعل توجد علاقة بيني وبينها، أليست رابطة العمل من العلاقات؟!

بدت علامات الغيظ والحنق ترتسم على وجه منى:

– يبدو أن الأمر لا يعنيك، أليس كذلك؟

ابتسم الدكتور عبد الحميد وهو ينظر إليها.

– أنا أقدر حبك لها وإخلاصك، لكن لكي أريح ذهنك، سأقول لكِ سرا، فاحفظيه ولا تتحدثي به لأحد حتى شمس، حتى أرتب أمري، أنا يا آنسة منى قد نويت الزواج من شمس.

انفرجت أسارير منى، وهبت واقفة وقد أشرق وجهها من جديد:

– أتقول صدقا؟

تساقطت من عينيها الدموع وهى تخرج مسرعة، لمحها أحد العمال وهى تجفف دموعها أمام باب حجرة الأطباء، هز رأسه وزم شفتيه وظل واقفا.

_24_

جاءت الساعة المرتقبة، حين خطت شمس في ثبات ترافقها منى من قسم الجراحة إلى قسم النساء والتوليد، كان الدكتور عبد الغني يقرأ في المصحف مرتلا بصوته الرخيم المسموع ساعة دخلتا عليه، فصدق وأشار إليهما بيده للجلوس، تحدثت شمس إليه وأخبرته بشكواها ونصيحة الدكتور علاء بالعرض على طبيب نساء، وقالت له أنها لن تجد من هو أمهر وآمن منه، شكرها وهب واقفا ثم خرجوا إلى حجرة الفحص، تسربت ممرضات قسم النساء الواحدة تلو الأخرى إلى حجرة الفحص بحجة الاطمئنان على زميلتهن:

— ألف سلامة يا شمس! مالك يا حبيبتي؟

تدفق العمال بأعذار مختلفة إلى قسم النساء، كذباب منتشر يبحث عن رائحة خبيثة، يسألون هذه وتلك ليتصيدوا خبرا، وفوجئت شمس بدخول الدكتور حسن مرعى، لم يكن نوبتجيا في نفس اليوم، سلم على الدكتور عبد الغني ونظر إلى شمس:

– سلامتك يا شمس، ألف سلامة.

– الله يسلمك.

ثم سأل الدكتور عبد الغنى:

– مالها عروستنا يا دكتور عبد الغنى؟

– فيه شئ محسوس بالكشف الظاهري محتاج سونار يحسمه؟

– وسيادتك ماذا تتوقع؟

– ما أحسسته هذا هو الرحم بالتأكيد، لكن ما هو التشخيص؟ هذا ما ستبينه الأشعة فوق الصوتية، وسيادتك عارف للأسف ليس عندنا سونار.

سأل الدكتور عبد الغنى شمس أسئلة عديدة، وكانت تجيب عليه بتحفظ وهى تنظر إلى الدكتور حسن مرعى.

– هل العادة تحدث لك بانتظام؟

– لا... نعم .

– لا أم نعم؟

– نعم منتظمة.

– متى كانت آخر مرة؟

– من أسبوعين.

أشاحت شمس بوجهها غضبا وهي راقدة، عندما لاحظت هذا الكم من المرضات، وقد حضرن جميعا بحجة الاطمئنان عليها، وظلت مني ترقبها في صمت، وقد خطر لها أن تطرد المرضات جميعهن من الحجرة، ولكنها خشيت أن يفسر تصرفها بما يضر صديقتها، فنفخت في يأس، وأطرقت برأسها لكنها أفاقت على وقاحة الدكتور حسن مرعي الذي سأل زميله:

— ممكن يكون حمل؟

فصرخت في وجهه وقد تدفق الدم في عروقها:

— ليست شمس التي يقال عنها هذا الكلام الناقص يا...، شمس أشرف ممرضة بشهادة الجميع، ثم قل لي بأي صفة تتكلم هذا الكلام؟ بل من سمح لك أن تدخل حجرة الفحص؟ هي ليست أختك أو زوجتك فكيف تدخل حجرة الفحص، وأنت لست سوى طبيب جراحة، فماذا تفهم في النساء حتى تسمح لنفسك وتخوض في أعراض الناس؟

وحاول الدكتور عبد الغني تهدئتها، وسرت همهمة بين المرضات، وقالت بحدة لشمس:

— قومي يا شمس من هذه الخرابة.

فاستوقفها الدكتور عبد الغني بأدب شديد، وقال في حدة:

– لماذا تقفون هكذا؟ كل واحدة تروح على قسمها، أنا لا أريد أن يبقى في هذه الحجرة غيري أنا وشمس ومنى، أي أحد آخر يتفضل؟

فهم الدكتور حسن مرعى ما يرمى إليه الدكتور عبد الغنى فانصرف في صمت، وقد بدت عليه علامات غطرسة لم تعهدها عليه منى من قبل، فكادت تحترق من الغيظ.

وكانت شمس قد تكومت فوق السرير، واستسلمت لنوبة عنيفة من البكاء، تتساءل دون أن تنظر لأحد:

– أنا! أنا! يقول عليَّ حامل؟!

تأسف الدكتور عبد الغنى بمشاعر صادقة لشمس، وقال لها يطمئنها أن الجميع يعرف سيرتها الطيبة، وأنها أنقى وأطهر ممرضة، وحثها أن لا تعبأ بما قاله الدكتور حسن مرعى، فهو ليس بعقله من العلم ما يجعله يدرك كل أبعاد واحتمالات شكواها، ثم نصحها من منطلق إحساسه بأنه أخوها أن لا تتباطأ في عرض حالتها على مستشفى جامعي، ورشح لها القصر العيني، لأنها تملك كل الإمكانيات بما فيها الأشعة فوق الصوتية، ثم قام فحرر لها استمارة تحويل رسمية.

خرجت شمس ومنى من قسم النساء إلى قسم الجراحة، ترشقها عيون الجميع التي تركزت عليها، رمقت منى

مدحت وهو ينظر إليهما ويبتسم ابتسامة خبيثة عند الباب الخارجي لمبنى النساء.

★★★

الحقيقة أن منى وشمس لم تناما في ليلتهما هذه دقيقة واحدة، فقد دفنت شمس رأسها في حجر منى التي أسندت ظهرها للحائط وهى جالسة فوق السرير، وقد ساد الظلام والصمت الحجرة، إلا شعاعا خافتا تسرب من النافذة المفتوحة، قالت منى بحنان شديد:

- لماذا لم تخبريني من قبل أن العادة الشهرية لم تحدث لكِ؟

- خشيت أن تقول البنات عنى إنني لازلت طفلة صغيرة وإنني لم أنضج كأنثى.

- لكن ألم تعلمي أنني مثل أختك، لا بل أنا أختك لأني ليس لي أخت سواكِ، وأنني أحبكِ وأخاف عليكِ، فقولي لي حتى أساعدك، هل تخبئين شيئا عنى؟

قفزت شمس ذاهلة تلطم وجهها بعنف، وتصرخ صرخات مكتومة:

- يا لهوى يا لهوى، حتى أنتِ تفكرين مثلهم.

فانفجرت منى تبكى، وهى تحاول أن تضمها ثانية إلى صدرها:

– أنـا لا أقصـد... أنـا أحبـكِ وخائفـة عليـكِ... يـا رب مـا هـذا الـذي يحـدث؟ سـامحيني يـا حبيبـتي كـم أنـا غبيـة.

واستسـلمت لحالـة مـن اليـأس المـر، وأذن الفجـر فانسـحبت شمـس مـن حضـن منـى في هـدوء إلى السـرير المقابـل، وتململـت كلتاهمـا في الفـراش حتـى انقضـي الليـل وطـل الصبـح كعـين رجـل وقـح يتتبعهمـا حيثمـا سـارا.

★★★

وفي صبـاح يـوم السـبت دخلـت شمس حجـرة المديـر، وقدمت لـه طلـب أجـازة اعتياديـة لمـدة أسـبوع، وتركـزت عليهـا عيـون الجالسـين، سمعـت حديـث الأطبـاء وحوارهـم الجهـرى، قـال أحدهـم:

– الدكتور عبد الحميد هو المخطىء.

وقال آخر:

– لكن من الفاعل إذن؟!

أرادت أن تنفجـر صارخـة فـى وجههـم بأنهـا بريئـة والدكتور عبـد الحميـد بـرىء، ولكـن صـوت المديـر أنقذهـا حـين قـرأت فـى عينيـه حنـو الأب وهـو يقـول:

– مـن حقـك إجـازة مرضيـة، الدكتـور عبـد الغنـى أخبرنـي بـكل شـئ، أنـتِ مـن أفضـل المرضـات عنـدي، كنـت

أتمنى أن يكون عندنا جهاز سونار، لكن الريف مظلوم كما تعلمين، واطمئني أنا مثل والدك هنا في المستشفى وأي إنسان سيتلفظ بلفظ غير مسئول سيكون عقابه وخيما، ربنا يبلغك السلامة يا ابنتي.

وعادت أدراجها إلى المنزل دون أن تنتظر حتى ترى الدكتور عبد الحميد.

_25_

الجو حار والرطوبة عالية، فالصيف هذا العام قطعة من جهنم، تمر ساعات هذا اليوم ـ الجمعة ـ مرور السلحفاء بطيئة كئيبة، توجه الدكتور عبد الحميد إلى عيادته الخاصة مبكرا على غير عادته، فتح الباب الخارجي، توقف لبرهة، ثم واصل المسير بخطوات بطيئة جدا وقد استغرقه تفكير عميق، فتح باب حجرة الكشف، فجأة تسمرت قدماه، امتقع وجهه، عاد مسرعا إلى الجيران يطرق أبوابهم بشدة، وفي لمح البصر كانت العيادة مكتظة بالناس، ليجدوا أن الآلات والأجهزة الطبية غير موجودة في أماكنها المألوفة، وليجدوا أن درج المكتب مكسور، وفارغ تماما، ألقى الطبيب بنفسه على أقرب مقعد، وقال بشفتين ترتعشان:

– كان بالدرج خمسة آلاف جنيه.

كانت الدهشة قد عقدت ألسن الواقفين، فمن يفعل ذلك بهذا الرجل الطيب القلب؟ ولم يقطع ذهولهم إلا حضور عم سعيد عامل العيادة الذي بدا ذاهلا في أول الأمر، وكان رجلا اشتهر بخفة الحركة وخفة الظل رغم كبر سنه،

وتمتع بذكاء حاد، وما إن رمقه الطبيب حتى انفجر قائلا:

– لماذا فعلت هذا يا عم سعيد؟

التفت الواقفون فجأة إلى الطبيب الذي يتهم عامله بالسرقة، قال الطبيب موضحا:

– لا يوجد سوى مفتاحين، أحدهما معي والآخر مع عم سعيد، والباب الخارجي لم يكسر، وباب حجرة الكشف لم يكسر أيضا، فمن فعل هذا إذن؟

قال هذا وضرب بيده بقوة على المكتب، ثم أردف قائلا:

– لقد أمنتك يا عم سعيد على عيادتي وعلى سكنى.

علت الأصوات وتداخلت، وبدأ الواقفون يتمتمون بكلمات تتهم عم سعيد، وتذكروا ماضيه البعيد، وشقاوته التي كادوا ينسونها، وكيف كان يتحدى الفلاح أمام الجالسين فوق المصطبة، مجاهرا بأنه سوف يسرق من حقله في يوم محدد، فكان الفلاح لا يغادر حقله في هذا اليوم، ولكنه بالرغم من ذلك كان يكتشف سرقة كيزان الذرة أو برك البطاطس من الحقل، وعندما كان يقابله عم سعيد في القرية يبادره على ملأ من الناس قائلا بصوته الحاد مع ضحكة عالية تتخللها كحة:

– كيف حالك وحال غيطك؟

فينفجر جميع الحاضرين ضحكا، وقد أدركوا ما انطوت عليه كلمات عم سعيد، وكانت شقاوته هذه لا تزعج أحدا، بل كان الناس يحبونه ويعطفون عليه، قال أحد الواقفين:

— ألم يتب على يد الشيخ علىّ، وأصبح يصلى في جماعة، ولا يفوته فرض؟!

قال آخر:

— يموت الزمار وصباعه بيلعب

ساد الصمت برهة قصيرة، وتنبه الناس من شرودهم على صوت عم سعيد قائلا:

— نعم أنا سرقتها، ولتجعل بيني وبينك ميعادا يحضره كبار رجال القرية والعمدة وكبار رجال القرى المجاورة.

أصابت الناس دهشة عظيمة من جرأة هذا اللص، وراحوا يقذفونه بأقذع الألفاظ وأقبحها، وعلت الأصوات مرة ثانية، فتدخل الطبيب طالبا الهدوء، وسادت لحظة صمت، عقب الطبيب قائلا:

— أنا لا أريد أن أفضح الرجل، وليعوضني الله خيرا، وليسامحني إن كنت ظلمته، ولكن كفاه وكفاني أن يترك العمل بالعيادة.

— أنا لا أريد أن تسامحني، ولكن حدد الآن ميعادا، وادع فيه من شئت.

كان صوت الرجل وحشيا، وكان متجها صوب الباب، فاستوقفه أحد الرجال من ذوى الكلمة في القرية، وحملق فيه للحظة ثم قال له بحدة:

– لا تهلك نفسك يا رجل بهذا الميعاد! واغتنم سماحة الطبيب.

لكن عم سعيد أصر، ولم يجد الطبيب تفسيرا لإصراره على انعقاد مجلس عرفي يفصل بينهما، وتم بالفعل تحديد موعد يوم الثلاثاء الساعة الرابعة بعد العصر، والمكان دوار العمدة.

لم يكن هناك مجال لحيرة الناس، رغم تبجح هذا اللص فى وجه الطبيب، وإصراره على عقد مجلس على مستوى القرى المجاورة، فاللص دائما لا يخجل، ولا يتورع عن مهاجمة صاحب الحق، ولاسيما إن كان طيب القلب واسع الصدر مثل الدكتور عبد الحميد، وكيف يرتاب الناس وهم يعرفون ماضي كليهما.

نامت القرية حانقة على هذا اللص الذي يعض اليد التي امتدت إليه، فكل القرية تعرف أن الطبيب قد ائتمن عامله إلى أبعد حد، فقد كان يرسله إلى شقته السكنية من وقت إلى آخر، يودع بها شيئا، أو يحضر منها شيئا، وكثيرا ما كان الطبيب يدعو هذا العامل للعشاء معه.

★★★

في اليـوم التالـي كان الخـبر يمـلأ المستشـفى المركـزي الـتي تخـدم أكثـر مـن أربعـين قريـة تابعـة لهـا، حمّـل معظـم الأطبـاء زميلهـم السـبب في تبجـح

هـذا العامـل، ورأوا أن الطيبـة المفرطـة لـن تعود علـى صاحبها بخـير، وكان يجـب عليـه أن يحـاذر، وأن يكـون حازمـا مـع هـذا اللـص الوضيـع وعقـد مديـر المستشـفى العـزم مـع نخبـة مـن كبـار الأطبـاء علـى الحضـور إلى هـذا المجلـس، ومشـاركة زميلهـم في التصـدي لمثـل هـذه النوعيـة مـن البشـر الـتي لا قبـل لـه بهـا.

_26_

انقضت ثلاثة أيام كأنها ثلاث سنوات، بل كأنها دهر مديد، بين بكاء ويأس وحزن، تجتر فيها شمس أحداث يوم الخميس بما حمله من قسوة وألم، فذبلت نضارتها، واغتيلت بشاشتها، تجلس في ركن بعيد من صحن الدار، تتابع الطيور، ضعف نظر الأم فلم تلحظ عليها شيئا والأب المسكين حفيت قدماه من دار إلى دار، يقترض من هنا وهناك لعله يجمع ما يغطى كل التكاليف المتوقعة، لم يشك لحظة واحدة في ابنته، وهشام ينظر إليها نظرات ساخطة، يقول لها بعين مريبة:

— لماذا تجلسين هكذا كمن فعلت فعلة شنعاء؟

حملقت فيه في صمت دون أن تهتز لها شفة، ترى لماذا لم تحضر منى لزيارتها؟ هل صدقت ما قاله الدكتور حسن مرعى؟ أم حكت لأمها ما حدث فنصحتها بقطع علاقتها بها، البنت سيرة، سمعة البنت رأس مالها، وسيرة شمس أصبحت على كل لسان في المستشفى، فهل تمتد لخارج المستشفى، أهٍ لو علم الدكتور عبد الحميد؟ الراجح أنه علم

بالفعل، فقد مرت ثلاثة أيام: الجمعة، والسبت، واليوم الأحد، ماذا سيظن بها، ربما تتغير معاملته الرقيقة معها، ربما يندم على الكلام الجميل الذي قاله لها، كل شئ أصبح جائزا وممكنا، قذفت شمس بحصاة صغيرة بطة سوداء فأصابتها في رأسها فرفرفت بجناحيها مذعورة، لم تطق أن تراها وهى تنقر الكتاكيت الخضراء تدفعهم عن المسقي لتشرب هي، دق الباب دقات متناغمة، نهضت متثاقلة، فوجئت بمنى تدخل بهرجها ومرجها:

– يبدو أنكِ قد تعودتِ على النوم والراحة، ألا تريدين أن تقومي لتفتحي لي الباب؟

أغلقتا باب الحجرة واندفعت منى تقبلها وتضمها إلى صدرها بقوة:

– أنا زعلانة منك جدا يا منى! طيلة هذا الوقت وأنتِ لا تسألين عنى؟

– كنت مشغولة بحاجات أهم منك غدا ستعرفينها، ثم إن ابن عمى وحبيبي ونور عيني الذي كنت آتى بلدكم من أجله أصبح هو الذي يأتى إلىَّ الآن لغاية عندي، وحياتك كل يوم.

ثم سألتها فجأة:

– أين المحروس هشام أخوكِ؟ حكايته طلعت حكاية!

– ماذا تقصدين؟ لقد أقلقتني.

– ليس هذا وقته.

– أظن أن المستشفى كلها تتحدث عنى هذه الأيام.

– أبدا... هناك موضوع آخر شغل المستشفى كلها.

– وما هذا الموضوع الأهم الذي شغلهم عنى؟

– موضوع الدكتور عبد الحميد.

شحب وجه شمس شحوبا مفاجئا وهى تسأل:

– آي موضوع؟

– لا... لا يذهب عقلك إلى بعيد، عيادة الدكتور عبد الحميد سرقت يوم الجمعة الماضى والمتهم عم سعيد عامل العيادة...

خال مدحت ممرض الاستقبال، وهذا الموضوع هو الذي أخرني عنكِ كل هذا الوقت، وقد عرفت معلومات مهمة جدا، لها وقتها.

كانت شمس تصغي والدموع تترقرق فى عينيها، انتابتها أحاسيس متناقضة من الحزن والفرح، فرحت لأن همهمات الأطباء صباح أمس عند المدير لم تكن عليها، وتذكرت ماقيل: الدكتور عبد الحميد هو المخطىء... لكن من الفاعل إذن؟! تذكرت ذلك وأحست أن جبلا من الحزن قد أزيل

مـن فـوق صدرهـا، وشـعرت فـى نفـس الوقـت بحـزن آخـر، حـزن أخـف حـدة ممـا كان، بسـبب مـا أصـاب حبيبهـا وقالـت وهـى تنظـر إلى منـى:

— ما هذا الذي يحدث؟ كل المصائب مرة واحدة؟

— هـذه ليسـت مصائـب يـا ابنـتي بـل هـي ألاعيـب شـياطين، ولـكِ عنـدي موضـوع سيسـعدكِ وينسـيكِ كل لحظـة حـزن، سـأخبركِ بـه عندمـا تعوديـن بالسـلامة.

— لا أرجـوكِ اخبريـني الآن، إن كنـتِ تحبينـني فعـلا وتريدين سعادتي.

— سأجعله حلاوة مجيئك بالسلامة، لكن متى ستسافرين؟

— غـدا، في قطـار السـاعة السادسـة صباحـا، وأمـي مصممـة أن تذهـب معـي أنـا وأبـى .

— اجعليهم يكشفون عليها هي يمكن تطلع حامل.

ضحكـت شمـس للمـرة الأولى منـذ ذلـك اليـوم وهـى تضـرب صديقتهـا بـدلال، وسـألتها منـى:

— ماذا قلتِ لهم؟

— قلـت لهـم يوجـد ورم في بطـني ويحتـاج أشـعة تليفزيونيـة في القاهـرة، لكـن مـا هـذا الخـبر الـذي سيسـعدني؟

— قلت لكِ عندما تعودين بالسلامة.

– فرحيني قبل أن أسافر فربما أموت فتندمين لأنكِ لم تخبريني.

اغرورقت عينا منى بالدموع وهى تقول:

– بعيد الشر، لا تحاولي أن تؤثري علىَّ حتى أخبركِ.

– أنتِ تعلمين أن الدكتور عبد الحميد نوبتجى غدا، فلتدخلي له الشاي كما عودته، ملعقتا سكر فقط، وقولي له إني...

– لم يذهب أمس ولا اليوم وربما لا يذهب غدا أيضا، بسبب السرقة والمدير كلف طبيبا آخر بنوبتجية يوم الاثنين.

تركت منى مظروفا مغلقا وهمت بالخروج، وأرادت شمس أن تفتحه لكن منى منعتها وطلبت أن لا تفتحه إلا بعد ذهابها.

منى تلك الصديقة الوفية، ككل الأصدقاء المخلصين، لا تريد كعادتها أن تشغل بال شمس بتفاصيل الأشرار، وما يحيكونه لها هي والدكتور عبد الحميد، رموها بكلمة تمس شرفها وسمعتها، والآن يوجهون الدفة قاصدين شخص الدكتور عبد الحميد، فلا داع للقلق،

طالما ابن عمها وحبيبها الذي يقيم في قرية شمس طمأنها بأنه صديق سائق السيارة نصف النقل والذي شفى من

إدمـان المورفـين، وكان يحصـل عليـه مقابـل الترويـج للطبيـب محـل الشـك وإحضـار المرضـى لعيادتـه، والطبيـب مـازال يطمئن لـه وقـد كلفـه بمهمـة قـام بنصفهـا الأول والنصـف الآخـر سـيقوم بـه في حينـه، ووضـح خطيـب منـى لـه مـا كان غامضـا عليـه، وأخبرهـا أيضـا أن صديقـين للدكتـور عبـد الحميـد اسمهمـا مجـدي وجمعـة يتابعـان معـه الأحـداث أولا بـأول.

_27_

جاءت الساعة الفاصلة من يوم الثلاثاء، واستحالت القرية الهادئة المطلة على فرع رشيد لنهر النيل ـ إلى ازدحام وفضول، وتوافدت إلى دوار العمدة طوائف متتابعة من كبار رجال القرية، والقرى المجاورة، كان العمدة يستقبل كل طائفة بحفاوة بالغة وترحاب جم، كان من بين هذه الطوائف جمع كبير من أطباء المستشفى، يتقدمهم السيد المدير، كما حضر عم سعيد برفقة ستة رجال وامرأة في سن الشباب.

شعر الدكتور عبد الحميد بدقات قلبه تعلو وهو ينقل النظر بين الدكتور حسن مرعى وطبيب التخدير الذي يرافقه، وبين المرافقين لعم سعيد، ولم يدر ما يتم بمثل هذه المجالس، وحار في موقفه، هل هو هنا بصفته جانيا أم مجنيا عليه، وامتلأت القاعة التي أعدت لمثل هذه المواقف.

سادت الأحاديث الجانبية في القاعة، تعالت الضحكات بين المدعوين، ثم ابتدأ العمدة الحديث فبسمل، وساد الصمت بين الحاضرين:

- مرحبا برجال الحق والواجب، الذين شرفونا من القرى المجاورة، والذين لم يتأخروا عنا في دعوة دعوناهم إليها، وليتفضل الحاج محمد خير الله رئيس المجلس، فالمكان والحاضرون ملك من الآن للمجلس.

استهل الحاج محمد خير الله حديثه بقراءة آيات الذكر الحكيم:

قال تعالى: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا) صدق الله العظيم.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض, وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يكذبه ولا يحقره، التقوى هاهنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه) صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم أشار إلى أحد أعضاء المجلس، ففتح حقيبته وأخرج منها شيكين، وطلب من كلا المتخاصمين التوقيع، كل على شيك غير محدد المبلغ.

بدأت المحاورات فقص كل طرف ما حدث، دون أن يقاطعه الطرف الآخر، كان أحد أعضاء المجلس يوجه

بعض الأسئلة الاستفهامية من وقت إلى آخر، كأن يقول للدكتور عبد الحميد:

— هل حضر إليك أخوك في عيادتك الخاصة في الليلة السابقة لحادث السرقة؟

— نعم حضر.

— لماذا؟

— أنا الذى طلبت منه الحضور فقد كنت أشعر بضيق، فأردت أن أتحدث إليه لعلى أستريح، وأردت أن يشاركني الرأي في بعض الأمور.

— هل يحضر معنا الآن؟

— لا.

— لماذا؟

— لا أعلم، رغم أنه أكد لى أنه سيأتي.

— أين يسكن؟ هل يسكن في نفس القرية؟

فرد الدكتور حسن مرعى قائلا:

— لا، إنه يسكن في قريتي أنا، على بعد كيلومتر من هنا.

— لماذا قلت إن الدكتور حسن يؤلب المرضى والناس ضدك؟

وجاء دور عم سعيد فقال وهو ينظر للدكتور حسن مرعى:

– اسألوا أولا الدكتور حسن مرعى عن حالة فريد شرف.

فركزت العيون على الدكتور حسن مرعى الذي قص حكاية هذا الشاب، يشاركه في الحديث طبيب التخدير، ثم تكلم عم سعيد فوقع كلامه وقع الصاعقة على الجميع.

تمت لقاءات سرية بين أعضاء المجلس وكل طرف على حدة، سمعوا الشهود، سمحوا ببعض المواجهات في حدود حرمة المجلس، ثم أرسلوا جماعة من أعضاء المجلس بناء على طلب عم سعيد إلى منزل الدكتور عبد الحميد برفقة مجموعة من الأطباء والدكتور عبد الحميد.

في نهاية المحاورات وبعد الإطلاع على ما أحضره الوفد الذي ذهب إلى شقة الطبيب، دخل أعضاء المجلس جميعا ورئيسهم حجرة جانبية، وبعد مشاورات بينهم دامت أكثر من ثلث ساعة، عادوا إلى أماكنهم وسط الجميع، ثم أصدر الحاج محمد خير الله الحكم التالي:

– يؤسفنا ما اطلع عليه المجلس، وتقرر تغريم الدكتور عبد الحميد مبلغ خمسة آلاف جنيه لصالح سعيد عبد الحي، وأيضا خمسة آلاف جنيه لصالح شيخ البلد، أما مدير المستشفى فله أن يقرر ما يرى ونحن معه، هذا على أن يكون السداد في موعد أقصاه أسبوعا من تاريخ انعقاد المجلس.

★★★

أخبر الدكتور حسن مرعى أنه لم يكن ينوى الخوض فيما حدث للمريض فريد شرف لولا مصارحة الدكتور عبد الحميد الوقحة له أمام المجلس بأنه يؤلب المرضى والناس ضده، وأنه يرميه بما ليس فيه، وأن التغير الذي حدث لعم سعيد كان هو من وراءه، وبما حكى عنه من أن عم سعيد قد أخبره ذات مرة أن الدكتور حسن طلب منه أن يترك العمل معه ليعمل في عيادته هو، عارضا عليه مبلغا أكبر، بسبب كل هذا أصبح لزاما على الدكتور حسن أن يوضح للمجلس سبب هذا الهجوم، فبدأ بتوجيه السؤال إلى زميله طبيب التخدير:

— هل تتذكر المريض فريد شرف؟

— نعم أتذكر هذا المريض، إنه المريض الذي قمت بتخديره لك في العيادة.

— هل تتذكر حالته؟

— كان عنده تسمم بريتونى.

— هل تتذكر سبب التسمم البريتونى هذا؟

— قلت لي حضرتك أثناء العملية أنك وجدت أن السبب هو انفجار في الزائدة الدودية.

— من فضلك قل لهم ماذا قال المريض في أول الأمر؟

- كان في المريض جرح يشبه جرح عملية الزائدة الدودية، في البداية أخبر المريض أنه جرح جراحي لعملية استئصال الزائدة ثم أنكر بعد ذلك، وادعى أنه جرح أصابه نتيجة احتكاكه بلوح من الصاج.

كان الدكتور حسن مرعى ينحني للأمام قليلا، وقد كسا الغضب كل ملامحه، استدار إلى أعضاء المجلس في حركة فجائية وقال:

- لقد أوهم الدكتور عبد الحميد مريضه فريد بأنه قد استأصل له الزائدة الدودية، وهو في الحقيقة لم يفتح غير طبقة الجلد.

قاطعه الدكتور عبد الحميد منكرا ما يقوله، ومتهما إياه بالافتراء عليه، لكن أعضاء المجلس أسكتوه بحدة، فانطلق فريد شرف قائلا إنه لا يشك في الدكتور عبد الحميد، وإنما يشك في الدكتور حسن ودكتور التخدير، وأنه قد استشعر منهما أنهما يريدان إيذاء الدكتور عبد الحميد ولهذا أخبرهما أنه جرح أصيب به من لوح صاج، وقال إنهما كانا يتهامسان فيما بينهما متوعدين الدكتور عبد الحميد، ظانين أنه نائم ولكنه كان ينصت إليهما، قاطعه أعضاء المجلس ليسمعوا للدكتور حسن، الذي استطرد قائلا:

- هذا المريض مسكين، اشترى الدكتور عبد الحميد ضميره بثمن عنزتين ومائة جنيه مستعينا بأحد الحلاقين الذين

يعملون لحسابه، والمقابل هو عدم ذكر اسمه أو ذكر العملية الوهمية التي أجراها له، فهو في الأصل لم يكن يعاني من التهاب بالزائدة الدودية، وإنما كان يعاني من مغص كلوي أيمن، وقد كشفت عليه قبل ذهابه إليه مباشرة، فإن كان رجل خير كما يظن الكثير لماذا تقاضى منه سبعين جنيها، ولماذا جعلهم يشترون علاجا لإجراء العملية المزعومة بمائة وعشرين جنيها، لم يستعمل منه إلا أقل من عشرة جنيهات، فلماذا هذا الحنان الذي حل به فجأة عندما أجريت أنا له العملية، ولا تنسوا أنه بعمليته الوهمية قد ضلل طبيب الوحدة الصحية، فظن أن المريض قد أستؤصلت زائدته الدودية من قبل.

تكلم فريد شرف ثانية دون أن يطلب منه أحد:

- على فكرة، الدكتور عبد الحميد رد لنا المبلغ الذى دفعناه له نظير العملية، لما قابله الحلاق وشرح له ظروفنا، رد لنا السبعين جنيه مع فتحي الحلاق.

قال الدكتور حسن وكأنه لا يوجه كلامه لأحد:

- كل هذا الكلام بالطبع موضوع ضمن الاتفاق المبرم مقابل ثمن العنزتين والمائة جنيه.

فكر الدكتور عبد الحميد للحظة، ماذا لو قال لهم عن مصدر هذه الأموال، بالطبع سيتبين للمجلس الكذب والقصص التي يختلقها الدكتور حسن مرعى، لكن هل

يخلف وعده مع صديقه الدكتور عثمان؟ ويضرب بالتعليمات عرض الحائط، ويهلك هذه اللجنة التي تقوم بأعمال الخير في سرية تامة، مخافة أن تظنها الحكومة تنظيما سياسيا، ثم قال في نفسه:

— ليتك كنت معي اليوم يا دكتور عثمان! ماذا لو كان خروجك في سبيل الله بعد هذا المجلس؟ ربما كنت أخبرتني ماذا أفعل!

ثم عاد يقول:

— ما هذا الذي أقول؟! فهو قد سافر قبل أن يعلم بشيء مما حدث!

لم يملك الدكتور عبد الحميد في دفاعه سوى الإنكار، واتهام الدكتور حسن بأنه عديم الضمير.

★★★

وكان مما أذهل المجلس المنعقد بدوار العمدة، ما فجره ابن شيخ البلد، وكان شابا تبدو عليه أمارات الخبث من نظرات عينيه إلى حركات يديه البهلوانية، فقد أخرج من جيبه بعض الحقن الفارغة، وقدمها لمدير المستشفى سائلا إياه عن مفعولها، فأمسك المدير واحدة منها وأخبر أنها حقنة ستربتوكاينيز تستعمل لإذابة الجلطات لمرضى القلب والجلطات الرئوية، فسأله ابن شيخ البلد عن دورها بعد

الولادة مباشرة، فذهل المدير وكل الأطباء وقال إنها ممنوعة وقت الولادة بل هي قاتلة، ثم سأله عن باقي الحقن فأمسك بواحدة أخرى وقال إنها حقنة مخدر كلى، كيتالار، لا تستعمل بأكملها، وإنما يعطى منها المريض سنتيمترات محددة حسب وزن جسمه، فسأله ابن شيخ البلد مرة أخرى وهو يرفع حاجبه الأيسر:

— هل لها دور في إيقاف النزيف بعد الولادة؟

فأجابه المدير مذهولا بالنفي، فقال الشاب موجها حديثه إلى الجميع وقد صوب سبابته اليمنى إلى الدكتور عبد الحميد وأخذ يحركها لأعلى وأسفل:

— لقد أعطى هذا الطبيب أختي كل هذه الحقن، وقال إنها توقف النزيف المتوقع بعد الولادة وتحمى الجنين في المرات القادمة.

هب الدكتور عبد الحميد واقفا وهو يصرخ في وجه ابن شيخ البلد:

— لم أعطها هذه الحقن، بل أعطيتها حقنة أنتى دى المضادة للآر إتش وحقن سيكلوكابرون ومثرجين.

فقام اثنان من أعضاء المجلس وأجلساه قائلين:

— لا تخرج عن تقاليد المجلس يا دكتور عبد الحميد، لقد سمعنا لك، فاعط الفرصة لغيرك، ولا تعرض نفسك

لحـق آخـر وهـو حـق المجلـس.

ونظر الأطباء كل إلى صاحبه بدهشة، وتساءلوا:

— وهل المريضة مازالت على قيد الحياة؟

وهنا تدخل عم سعيد ليشرح لهم قصة هذه الحقن.

★★★

— لم أكـن بمـا وهبـني الله مـن عقـل لأتحـدى الدكتـور عبـد الحميـد الراجحـة كفتـه بـكل المقاييـس إلا إذا توفـرت لـدى الأدلـة الدامغـة، ولم أكـن لأقـدر علـى الـكلام إلا في وجـود كيـان يحفـظ حقـي، وكان المجلـس الـذي أصـررت علـى انعقـاده هـو هـذا الكيـان.

هكذا استهل عم سعيد كلامه:

— في اليـوم السـابق لحـادث السـرقة المزعومـة، وقبـل ميعـاد إغـلاق العيـادة، طلـب منـى الدكتـور عبـد الحميـد أن أتـرك العمـل وأذهـب إلى منزلـي لأسـتريح، وأخبرنـي أنـه سـوف ينتظـر بعـض الأصدقـاء ليسـهر معهـم بالعيـادة، فـلا حاجـة لبقائـي معهـم، لم يكـن هـذا المنطـق ليقنعـني، وكان المنطـق السـليم أن أبقـى معهـم لخدمتهـم، أحسسـت بشـيء مـن القلـق، وتذكـرت بعـض انحرافـات الطبيـب، لسـت أقصـد علاقاتـه بالبنـات وإيهامهـم بالـزواج حتـى يحصـل علـى غرضـه، رغـم أن هـذا ماسـتفاجأون بـه، ولكـن أقصـد

انحرافاته المهنية، فلم أنس وجهه وقد ارتسمت عليه إمارات الفزع عندما دخلت عليه ذات يوم، على غير توقع منه, فوجدته يسحب بالمحقنة محلول الملح الطبيعي من زجاجة سعة النصف لتر، ويعبئ بها فوارغ حقن ذات غطاء فليني، كانت كثيرة أمامه، وكنت أعجب من قبل عندما أجده يحضرها معه من المستشفى، كانت نفس الحقن التي يعطيها للمرضى مقنعا إياهم أنها تمنع النزيف أو تحسن الأزمات الصدرية، والناس لا تقرأ سوى الثمن المكتوب عليها.

كان وجه عم سعيد قد احتقن وأخذ صدره يعلو ويهبط، مد يده إلى كوب الماء، مص منه بصوت مسموع، تجشأ، كان جميع الحاضرين ينظرون إليه بعيون مفتوحة عن آخرها، لم ينطق أحد بكلمة، كأنما أصابهم جميعا البكم، استكمل الرجل حديثه فقال:

— لن أنسى أيضا ذلك اليوم، ساعة طلب منى الطبيب أن أذهب إلى شقته لأحضر بعض الدفاتر، وأثناء إيابي نزع غلاف أحد الدفاتر عن غير قصد منى، وعرفت أنها دفاتر العلاج الاقتصادي الموجود مثلها بالمستشفى، وأصابتني الريبة عندما وجدت الذعر يكسو وجه الطبيب لحظة أن رأى الغلاف المقطوع فتحريت ووصلت إلى الحقيقة.

وراح عم سعيد يكمل الأحداث فقال إنه عندما ادعى الطبيب انتظاره لبعض أصدقائه تظاهر هو بالانصراف، وربض عن بعد يرقب المنزل، وطال انتظاره، وكاد يغادر المكان إلى منزله لولا أن رأى أخا الطبيب يدخل العيادة، فأنطلق وراءه، وراح يصعد درجات السلم متسللا، دون أن يحدث أدنى حركة، ولما اطمأن أنه دخل حجرة الكشف وأغلق وراءه الباب، سار ناحية الباب على أطراف قدميه، وراح ينظر من خلال ثقب مفتاح الباب وهو يسترق السمع.

كان عم سعيد كما قال قد أعد إجابة مناسبة إذا ما أكتشف الطبيب وجوده، سيقول إنه عاد ليعتذر عن عدم الحضور في الغد، وأحس أن أسدا يجثم على صدره عندما سمع الطبيب يطلب من أخيه أن يبقى بالعيادة لوقت متأخر من الليل، ثم يكسر درج المكتب، ثم يحمل بعض الآلات والأجهزة الطبية إلى شقته ـ الطبيب ـ وقال إنه أصابته من سماع هذا الحديث نوبة تشبه الدوار، فتحركت في رأسه الأفكار مجتمعة، وأحس بألم شديد في رأسه، ثم انتهى به التفكير إلى اللجوء لابن أخته المرض بالمستشفى.

ترك عم سعيد العيادة، دون أن يشعر به أحد، وقضى ليلته في بيت أخته مع ابنها، نصحه ابن أخته أن يدع الطبيب يفعل ما يشاء طالما عرف ـ دون أن يشعر الطبيب ـ مكان هذه الأجهزة، وطلب منه أن يلتزم الصمت.

أما مدحت عامل الاستقبال بالمستشفى، والذي كان المدير يشدد عليه في المراقبة، ويأخذ حديثه إذا تحدث مأخذ الشك، واضعا في اعتباره نصيحة الدكتور عبد الحميد، فقد فاجأه بل فاجأ الجميع بثقة حديثه:

- لاحظت عن طريق المصادفة أن الدكتور عبد الحميد ينقل إلى سيارته ـ في أحد أيام نوباته بالمستشفى ـ بعض الأجهزة والمستلزمات الطبية من قطن وشاش وخيوط جراحية في ساعات متأخرة من الليل، وفكرت أكثر من مرة أن أخبر المدير، وسيطرت علىَّ فكرة إخبار المدير بقوة عندما علمت أن ثمن جهاز الشفاط الذي اختفى فجأة قد خصم من راتب ميرفت ممرضة الاستقبال، ولكنني ترددت ولم أجرؤ، سوف ينقلب علىَّ الاتهام، فمن سيصدق الممرض ويكذب الطبيب؟ وبخاصة إذا كان مشهورا بالأمانة والإخلاص.

ونظر إلى الدكتور عبد الحميد وهو يبتسم ابتسامة ساخرة بطرف عينه وأكمل حديثه:

- ولم أجرؤ أيضا أن أخبره عما يأخذه من المترددين على الاستقبال من مركز الشرطة لكتابة تقارير طبية عن إصاباتهم، وهو لا يقبل أقل من عشرين جنيها، لم أكن أعرف في بادئ الأمر، فقد كان يطلب منى أنا وميرفت أن نخرج من حجرة الكشف لئلا نطلع على عورات

الناس، ورمقه بنظرة ساخرة أخرى:

- وذات مرة جاءني أحدهم لأشفع له عند الطبيب ليأخذ عشرة جنيهات فقط بدلا من العشرين، لكن الرجل أقسم، وأخبرني أن خليل العامل هو الذي طلب منه ذلك، وبدأنا أنا وميرفت نراقب معاملة الطبيب مع هؤلاء الناس، ولكن لا يجرؤ أحدنا أن يتفوه بكلمة، وآثرنا الصمت عملا بالمثل القائل (اصبر على جارك السو...)

وعاد مدحت يكمل ما بدأه خاله سعيد، إنه في الليلة التي جاءه فيها خاله سعيد لم ينم، بل ظل يفكر كما لم يفكر في حياته، وهداه تفكيره إلى العامل فتحي، الذي لا يخشى في الله لومة لائم، ونظر إلى العامل فتحي الذي كان يجلس بجواره، فهو يعرف الكثير عن خليل وما يفعله، يضع خليل العراقيل ويوهم أهل المتوفى ـ في يوم نوبة الدكتور عبد الحميد ـ أن التصريح بالدفن في نفس اليوم يعد من رابع المستحيلات، وبعد أن يقرأ اليأس في عيونهم، كان ينصحهم بالاستعانة بالدكتور عبد الحميد، ومراضاته بمبلغ يحدده لهم لعله يساعدهم، فإذا ما لجأوا إليه تنحى بهم جانبا، فيدس أحدهم المبلغ المتفق عليه في يده في حركة تشبه المصافحة، فيعود من عندهم مجلجلا بصوته.

★★★

سمع الحاضرون صوت سيارة تقف أمام دوار العمدة، لزم الجميع الصمت، فإذا بالوفد الذي ذهب إلى منزل الدكتور عبد الحميد قد عاد، عرضوا الأشياء التي أحضروها وسط المجلس، والدكتور عبد الحميد يقف مطرق الرأس، كانت الآلات والأجهزة المسروقة بينها، فجأة قفزت السيدة الشابة التي حضرت مع عم سعيد نحو جهاز بعينه، وانتشلته من وسط الحقن المختلفة المعبأة بمحلول الملح الطبيعي وصرخت وهي تنظر للمدير:

– جهاز الشفاط الذي خصم ثمنه من راتبي.

وبينت للمدير الشرخ الموجود بأحد جانبيه، والذي طالما حذرهم المدير منه وطلب منهم التعامل مع الجهاز بحذر لئلا ينكسر، فمثل هذه الأجهزة لا يعوض بسهولة، لكن المدير لم يعرها اهتماما كافيا، فقد ذهب بلبه وجود دفاتر مطبوعة على نمط دفاتر العلاج الاقتصادي، فلمعت عيناه، واحتقن وجهه، وحدث نفسه:

– أتصل الجرأة به أن يطبع دفاتر العلاج الاقتصادي ويستعملها لحسابه الخاص؟!

ضج المكان فلم يعد صوت الدكتور عبد الحميد مسموعا، دفن وجهه بين كفيه، فأخفى كل ملامحه إلا خطين لامعين قد انحدرا من عينيه.

_28_

أمامهم على مرمى البصر، بدت الشمس قرصا نحاسيا، يسقط فى هوة ضبابية، والحفيف الذي عزفته نسمة دافئة على قيثارة حقول الذرة المترامية أمامهم على الجانبين، ولَّدَ سيمفونية رائعة من رحم الطبيعة البكر، نعم البكر، فكان وقع أقدام المترجلين يرتد إلى آذانهم ليكمل مع نقيق الضفادع هذه السيمفونية، وكانت شمس تتبختر في حديقة أحلامها، لم يعد هناك ما يقلقها ويعكر صفوها، فهي تحمل تحت إبطها نعم تحمل ـ فلم تعد تضيق من هذه اللفظة ـ ملفا يضم كل الأوراق المعتمدة من مستشفى القصر العيني، ليشهد أمام الجميع أنها لم تكن حاملا، وأن ما كانت تعانى منه إنما كان حالة هيماتوكولباس نتيجة تخزن دم العادة الشهرية في رحمها، الذي كان يكبر باطراد لعدم وجود فتحة أو ثقوب في بكارتها يخرج منها هذا الدم، فبكارتها كانت من الأنواع النادرة المصمتة، كأخلاقها النبيلة النادرة، سوف يسيل الدم كل شهر، ذلك الدم الذي طالما تاقت إليه ليثبت لأترابها أنها أنثى ناضجة مثلهن،

وهاهو أستاذ أمراض النساء والتوليد قد أجرى لها عملية الثقب الصناعي محافظا على بكارتها، وهذه الأوراق التي تحضنها من ساعة لأخرى هي دليل شرفها أمام الجميع، بل هي راية النصر ترفعها في وجوه المعتدين، ولم يبق لها إلا أن تتفرغ لمشاعرها الرقيقة التي تحملها للدكتور عبد الحميد، ترى ماذا حدث في هذين اليومين؟ ها أنا قد هدأ بالي، فهل هدأ باله مثلي؟ يقولون إنه مع اشتداد الضيق ووصوله إلى ذروته يكون الفرج، حقا صدق قولهم معي، فهل يا ترى صدق معه هو الآخر؟ كم أتمنى أن أراه، لم يزل صوته في أذني (أنتِ جميلة، وأنا أفكر فيكِ هذه الأيام كتير)، الله، ترى هل سيسمعني هذا الكلام مرة أخرى؟ ربما يكون حزينا الآن، إنهم لم يسرقوا عيادته وإنما سرقوا مني الكلام الجميل الذي كان من الممكن أن أسمعه مرة أخرى، الذي سرقوه مني يفوق ما سرقوه من عيادته، فكلمة جميلة منه تعادل الدنيا بأجمعها.

— لماذا أنتِ صامتة هكذا يا شمس؟ أنتِ نائمة؟ هل أحد ينام وهو ماشٍ؟

ويضحك الأب ملء فيه، وتتوكأ عليه زوجته فاطمة.

— أنتِ طلعتِ ناصحة قوي يا بنت، عارفة لو كنتِ قلتِ ما حصل لك قبل سفرنا، كنت جبت لك القابلة، وكانت فعَّصت فيكِ، ويمكن كانت ضيعتك.

ويعود فيضحك فيرتج كتفاه، ويفيق على لكمة من كوع فاطمة زوجته فيضحك أكثر:

— احتشمْ يا رجل أنت، تقول فعَّصتْ! وتقول ضيعتك! هل هذا كلام يخرج من رجل لابنته؟

— من قال لك رجل؟

ويضحك حتى يسعل فيرتج وترتج فاطمة زوجته، وتكاد تسقط على الأرض، ولم يسمعوا حفيف أعواد الذرة الذي بدأ يعلو قبالتهم ليشق سكون الصمت الضارب على الطريق، وخرج شبح واتجه نحوهم، وفى لمح البصر هوى بعصاه الغليظة على رأس شمس، فصرخت صرخة واحدة وسقطت على الأرض مضرجة بدمائها، وسقط الملف، راية النصر، وانتثرت أوراقه على الطريق، لم يتحرك الشبح فقد أمسك به والد شمس وكاد يخنقه لكنه لم يستطع، فقد هوى الأب على الأرض وهو يخفى عينيه من الصدمة، وصرخ بكاؤه:

— لماذا؟... لماذا؟؟ بدلا من حمايتها تقتلها؟

وراح يردد كصوت امرأة نواحة:

— لماذا يا هشام؟ لماذا؟ لماذا؟

واختنق صوت هشام من البكاء وهو يقول:

— تزني وتحمل وتذهبوا مصر لإجراء عملية إجهاض لها، كان أولى بها أن تموت.

– تزنـي وتحمـل؟ مـاذا تقـول يـا كلـب يـا ابـن الكلـب، مـن قـال لـك هـذا مـن؟

– تظنونني مغفلا! أنا عرفت كل شيئ.

– أنت لا تعرف شيئا أبدا؟ إنت ستظل حمارا...

وينتبـه الرجـل لابنتـه في حجـر أمهـا، ويقـرب عينيـه مـن وجههـا:

– قتلـت أختـك يـا مجـرم؟ بـدلا مـن مواسـاتها في مرضهـا؟ ثـم ينظـر الرجـل إلى وجـه ابنتـه ثانيـة، وهـو يحدثهـا في ذهـول:

– أوراقـك أهـي يـا ابنـتي، أوراقـك أهـي معتمـدة من مستشـفى القصـر العيـني، أوراقـك أهـي تقـول إنـك أشـرف بنـت، أوراقـك أهـي مـن مستشـفى حكومـي مش مـن عيـادة خاصة.

وانتابـت الرجـل نوبـة مـن الانتحـاب كالزلـزال الشـديد، ثـم نظـر إلى أبنـه وقـال:

– أنت الذي تستحق الموت وليس هي.

ووقـف هشـام صامتـا لا يتكلـم، واتسـعت عينـاه مـن الذهول، كأنـه مطعـون في كبـده، ثـم انكـب يجمـع الأوراق في سـرعة وانطلـق كالريـح إلى القريـة.

★★★

في أقل من عشر دقائق وفى نفس الوقت الذي حضرت سيارة لتلتقط شمس وأبويها إلى المستشفى، كان هشام يخترق المجلس بدوار العمدة، غير عابئ بالرؤوس الشامخة ولا بهيبة العمدة ولا بأبنائه الذين وقفوا كالصقور.

_29_

كاد المجلس يهم بالانصراف، ووقف الدكتور عبد الحميد منفردا، وقد أسلم عينيه إلى صفحات مصحف صغير أخرجه من جيبه، وكانت العيون ترمقه بازدراء، ووقف مدير المستشفى يصافح أعضاء المجلس والأطباء الملتفين حوله، وتنحى طبيب التخدير جانبا يسأل الدكتور حسن:

— هل عرف أحد أن العملية التي قمنا بها لفريد شرف كانت عملية إصلاح ثقب بجدار المعدة نتيجة قرحة قديمة وليست عملية استئصال زايدة دودية منفجرة؟

— لا، لا أحد سوى عبد العزيز ابن شيخ البلد، وهو مأمون الجانب، لأن روحه في يدي، اطمئن ولا تتكلم في هذا الموضوع الآن.

وقف ابن العمدة مذهولا، وقد صفعت كلمات طبيب التخدير أذنه، فتحرك قاصدا والده، لكن الضجيج هدأ فجأة، وتركزت العيون على شاب يقتحم حرمة المكان دون

إذن، كان أشعث أغبر منتفخ الجفون، كأن لم ينم منذ أمد بعيد، وصاح وهو يفرج الواقفين بطريقة همجية:

— أين هو؟ أنا لن أدعه يعيش ساعة واحدة!

ولمح عبد العزيز يقف بجانب والده فانطلق إليه، وأمسك بتلابيبه مطبقا على عنقه، فاحتقن وجه عبد العزيز، لكن الناس تكاتلوا عليه، وخلصوا عبد العزيز من قبضته، ثم صفعه العمدة صفعتين سمع جميع الحضور رنينهما، فقال الشاب غير مبالٍ:

— والله لن أدعه إلا ميتا.

صاح فيه العمدة:

— من أنت؟! وماذا تريد؟!

— اسألوه! قولوا له لماذا حرضني فقتلت أختي بيدي؟

كان الدكتور حسن مرعى وعم سعيد يرمقانه وقد هرب الدم من عروقهما، فوقفا ساهمين ينظر كل منهما للآخر، فهما يعرفانه جيدا، إنه أخو شمس، ويعرفان جيدا لماذا أتى إلى هنا.

ربت الشيخ محمد خير الله على كتفه وهو يجلسه ويجلس بجانبه:

— احكِ لنا يا ابني الحكاية بهدوء حتى نفهم.

- يا حاج، عبد العزيز هذا ابن شيخ البلد قال لي إن أختي شمس حامل من الدكتور عبد الحميد، الجراح الذي يعمل هنا في هذه القرية، وقال لي أن أبي وأمي أخذوها لمصر لإجراء عملية إجهاض لها، يعنى يسقطوها، خلاني ألبد لهم فى حقل الذرة وأنتظرهم لحين رجوعهم، وقتلتها يا حاج! نعم قتلتها الآن.

ثم انخرط في بكاء متواصل، فقال الحاج محمد خير الله:

- قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) صدق الله العظيم.

وقال الشاب لائما بنبرات الضعف وهو ينظر إلى عبد العزيز:

- تبيع صاحبك يا عبد العزيز هكذا من أجل حقنة مورفين أو قرصين صليبه وتخليني أقتل أختي؟!...

ثم ارتفع صوت الشاب مرة أخرى وهو يقول:

- والأوراق أهي! الأوراق أهي! يا عبد العزيز أختي بريئة، وهي كانت بتعمل عملية وليس إجهاض.

لم يطق الدكتور عبد الحميد صبرا وسأله:

- وأين هي الآن؟

– أرسلت لها سيارة تنقلها للمستشفى.

تحرك الدكتور عبد الحميد بسرعة نحو سيارته، وفي لمح البصر انطلقت السيارة كالصاروخ، مخلفة وراءها سحابة عالية من الغبار.

ووقف عبد العزيز بعد أن خلصه الرجال من قبضة الشاب وقال:

– أنا لا أعرف أختك، ولم أرها من قبل، عمك سعيد هو الدي قال لي هذا الكلام، وهو الذي طلب مني أنبهك لأنك تهمنا.

– ياليتك ما نبهتني، وكنت تركتني أعمى.

فتوجهت الأبصار ناحية عم سعيد الذي كاد يسقط على الأرض من الصدمة، فنظر بدوره إلى الدكتور حسن مرعى وقال له:

– رد أنت يا دكتور، أليست خطتك؟

لم يستطع الدكتور حسن مرعى الإجابة؟ كأن لسانه قد غاص في حلقه، وأمسك شيخ البلد ابنه من عضده بقوة وهزه هزة عنيفة وهو يصيح:

– يعنى حكاية المورفين كانت صحيحة، والرجل لم يكن كذابا كما قلت أنت وسعيد، كيف كنت تحصل عليه؟ انطق كيف كنت تحصل عليه؟

فنظر عبد العزيز إلى عم سعيد ونظر عم سعيد بدوره إلى الدكتور حسن مرعى، فسادت همهمة عالية، قطعتها صوت سيارة نصف نقل تقف أمام الباب، وينزل منها خمسة شباب، ما إن رآهما الدكتور حسن حتى تهالك وتساقط ببطء مسندا ظهره إلى الحائط وقد خارت قواه.

كان أحدهما أخا الدكتور عبد الحميد، الذي يقيم في قرية الدكتور حسن مرعى، والآخر كان سائق السيارة نصف النقل، الذي نقل المسروقات بجهل، من عيادة الدكتور عبد الحميد إلى منزل مدحت المرض، ثم أعادها إلى منزل الدكتور عبد الحميد ثانية، بعد أن أضافوا جهاز الشفاط وعلبة من الكرتون بها مجموعة من الحقن، أعادها يوم الاثنين بعد منتصف الليل يصحبه عم سعيد، بعد أن تأكد لهم من عبد العزيز أن الطبيب يبيت عند أخيه في قرية الدكتور حسن، أما الشاب الثالث فكان شابا وسيما عرف نفسه بأنه من عائلة المنشاوى وأنه ابن عم وخطيب منى المرضة صديقة شمس، والرابع والخامس كانا مجدي وجمعة صديقيْ عبد الحميد.

تمت

المؤلف في سطور

الاسم : جمال محمود دغيدي

اسم الشهرة : جمال دغيدي

- ولد عام 1960 م في ساقية المنقدي . أشمون . منوفية.
- التحق بكلية الألسن عام 1979 م، ولكنه أعاد الثانوية العامة، والتحق بكلية الطب جامعة الاسكندرية عام 1980 م وتخرج بعد أن حصل على بكالوريوس الطب والجراحة عام 1987 م .
- يعمل بمصر طبيبا بقسم الأمراض الباطنية والقلب بمستشفى أشمون العام .
- فاز في مجال الشعر في مسابقة سيناء الأدبية 1882 م، وهيئة الفنون والآداب بالاسكندرية 1984 م، والمجلس الأعلى للشباب والرياضة 1990 م . القوات المسلحة 2016م كما فاز في بعض مسابقات الزجل والقصة القصيرة .

- نشر بعض قصائده ومقالاته في مجلات : إبداع ، والحرس الوطني والمنتدى وداريـن والفيصل، وجريدة اليوم والاقتصادية السعودية وجريدة المنوفية وغيرها.
- يكتب إلى جانب الرواية الشعر والقصة القصيرة والزجل والمقالة الطبية .
- عضو اتحاد كتاب مصر .
- من شعراء معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين .
- من شعراء الموسوعة الكبرى للشعراء العرب .
- أعماله المنشورة : ديوان شعر (صمت وشيئ ما) 1999م، ورواية (انتبهوا العود يحترق) 2014 م، ورواية (الحافلة) 2016م .